مجموعة قصصية

قتله الوهم

(عندما يصبح الموت عَرضًا انسحابيًّا)

سعاد شاهين الكاشف

قتله الوهم

«عندما يصبح الموت عَرضًا انسحابيًّا»

مجموعة قصصية

سعاد شاهين الكاشف

2021

تصميم الغلاف: ياسمين ناصر عمر
التصحيح اللغوي والتنسيق الداخلي: هند محمود

إهداء

إلى أبي..

حين فقدتك شعرت كما لو كان قلبي أنا المفقود.

إلى الضائعين في وعكات المرض..

تزينوا بالصبر فإن في ثنايا النِّعَم كثير من الابتلاء.

إلى الإنسانية أجمع..

من طين نحن يفتتنا الألم، لكن حتما سنتشكل من جديد.

إلى كل من قاوم تحت طائلة الهلاك..

إليكم أهدي هذه المجموعة.

مقدمة

عزيزي القارئ..

ما أحتاج إليه هو كتلة شعور تمتزج بنزعة إنسانية، فلا فائدة من مقدمة بالية أصف فيها ما ستقرأ في الأسفل دون قلبك، هذه فرصتك الحقيقية، اترك عمرك هويتك وحالتك النفسية هنا.

اشعر بما لا تشعر، انظر إلى كل ما لا ترى، أوقِد حواسك ثم أطلق بصيرتك نحو أهازيج من أمل وألم، من ابتكار وارتباك، من مرض ورماد، من حياة وإيحاء، من خوف وفخر.

كُن هنا معنا حتى لا ينجرف الموت نحونا.

«الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة. ولستم يا أهل حارتنا أحياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت»

نجيب محفوظ – أولاد حارتنا

مباشر من المعتمدية

ملحوظة: الحكايات الشعبية لا يليق بها رونق الفصحى، فلا بد من هرج العامية.

في تمام الساعة التاسعة مساءً، يغطي سماء بولاق الدكرور وضواحيها ألف من السحب وصقيع لم يسبقه الجو من قبل، تدثر أهالي المعتمدية بدفءٍ من نوع خاص عندما استهل الإعلامي وحيد فريد برنامجه اللوذعي «للحقيقة آذان» بمقطع من الصياح اليومي.

ومن منظور تلك الآذان كان يزداد صراخًا في عامة الشعب مباشرة حتى يدركوا رؤوس الحقائق وتستنير العقول.

- علِّي الصوت شوية، خلينا نسمع فيه إيه في البلد يا واد يا حماصة.

قالها المعلم متولي صاحب القهوة من الطبقة الوسطى على الصعيد المادي، وحين نقيس كم المعلومات التي يمتلكها سنكتشف أنها لا ترتقي إلى أي طبقة أيًّا كان نوعها، يرتدي جلبابه الفضفاض وهو يستند إلى كرسيه المصنوع من خشب الزان متلاعبًا بتلك السِّنة الذهبية اللون بين صف أسنانه الأمامية.

ذو قلب طيب، علاوة على ذلك فهو أكرش يحب الطعام وربما النساء أيضًا. يقال إنه يتزوج من امرأة جديدة كل عام، وأخبرني حماصة ذات مرة أن آخر زوجاته السبب في تغيير اسم القهوة من «المعلم متولي وأولاده» إلى «ساعة لقلبك»؛ إيمانًا منها بأهمية القلب في إنعاش الأمور. ثم أردف مُنعِمًا النظر إلى شاشة التلفاز ممسكًا نارجيلته بالأخرى:

- هوَّ ما لُه شايط علينا النهاردا؟!

مشيرًا بسبابته إلى خيال الإعلامي الموقر.

أجاب حماصة في فذلكة:

- معذور يا معلم، بيقولوا فيه شوطة بتموِّت الناس زي الطاعون بالظبط ومش لاقيين دواها.

- اللي هيموت هيموت بشوطة ولا من غيرها، كلها أسباب.

همس بها الشيخ نعيم من زاوية هادئة وهو يحتسي مشروب السحلب المفضل لديه، ربما يعتبر البعض أن حديثه فيه نزعة كآبة، بالفعل الشيخ نعيم هكذا إلا أنه بركة القهوة وتميمة الخير، كما يعتقد أهل الحارة. في آخر مرة توالت بركاته أرجاء الحارة عندما ارتطم حماصة أرضًا وهو يثبت اليافطة بطلب من الست -أحلام زوجة المعلم الجديدة- ولم ينكسر فيه أي ضلع.

وقتها كان الشيخ نعيم جالسًا وبين يديه سبحته العاجية ثم تمتم ببعض الذِّكر من آيات الله، فاعتلت ملامح الدهشة أوجه المارين ثم التصق بنعيم ذي شهادة المعلمين القديمة لقب الشيخ، على الرغم من أنه لم يدرس علمًا من علوم الدين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! ادعي لنا يا شيخ نعيم.

المعلم متولي يقلب كفيه متعجبًا.

قاطعهم الأستاذ فكري جاد الحق، جارهم الجديد، يعمل في إحدى المصالح الحكومية، يعيش في صرح المعلم ذي الألوان الصاخبة ما بين الأصفر والبرتقالي واختار أن يقطن في الثاني منه على الرغم من أنه يقرب من أربعة عشر طابقًا، لكنه مريض قلب والأدوار العالية غير مناسبة لحالته، ويزين مدخله صورة المعلم منذ آخر زيارة له إلى بيت الله الحرام.

- بس الموضوع شكله خطير، وإلا ما كانش وحيد فريد بنفسه يهلل بالشكل دا.

كتم حماصة بعضَ ضحكاته المتقطعة وأخبره أن هذه هي هواية الإعلامي المخضرم وأن الأمر لا يشكل خطورة فادحة، إذ إن للأستاذ فكري وساوس غريبة بعض الشيء، في إحدى المرات جعل حماصة يغسل كوب الشاي عشرين مرة يقينًا منه أن رواد القهوة تناولوا مشروبهم في هذا الكوب على وجه التحديد.

نفد فحم الشيشة، فهرول حماصة إلى كشك عم عبده في آخر ناصية الشارع، وهو في طريقه إليه صادفه عائدًا.

- عايز 3 كيلو فحم للقهوة.

- أنا قفلت خلاص، ومش هافتح لمدة أسبوع، إحنا خدامين الحكومة.

- ما انتَ بشحمك ولحمك أهو عايز توقف حالنا!

- كلام في سرك يا ابني، حد من حبايبي قال إن الحكومة هتقفل القهاوي وفيه غرامات علشان المرض الجديد دا اللي اسمه مكرونا.

- المعلم متولي لو سمع الكلام دا هيطب ساكت، دا رزقه ورزق 8 عيال، أنا مش هاقول حاجة.

ثم أردف وهو يفرك كلتا يديه من لسوعة الجو:

- ناولني الفحم خليني امشي ينوبك ثواب، الشباب على القهوة عايزين يولعوا.

قالها الصبي ممازحًا، أجابه عم عبده في حزم تام:

- طيب يا حماصة، المرة دي وبس.

الحارة غارقة بين سكون الليل وغمرة رائحة التبغ والنارجيلة المقدسة في القهوة.

سُمِع صوت رفيع المستوى له نبرة رخيمة، أظنها من أحد مذيعي النشرات الإخبارية.

«لقد اجتاح وباء خطير البلاد يصيب المواطنين بحالات شبيهة بأعراض الإنفلونزا لكنه مميت، لذا نلزم الجميع بعدم الخروج من بيوتهم إلا للضرورة القصوى، ونرجو من الله السلامة، وسيُطبَّق الحظر على البلاد كلها من الساعة السابعة مساءً».

- جرا إيه يا ولاد؟ يعني مش هانزل الشارع؟!

تساءلت الحاجة زينب عبد العال، زوجة الأستاذ فكري مريضة سكر من النوع الثاني، عاشقة لفن لف محشي الكرنب السريالي، وأم عظيمة بطبيعة الحال وهي تقترب من التلفاز القابع أعلى البوفيه الأثري.

تابعت حديثها المقنع من وجهة نظرها:

- ثم المرض دا مش يمكن عند بتوع التلفزيون بس، مش عندنا في الحارة، دا بيقولوا البُعدا الأجانب دول اللي شبه بعض دول، عارفينهم؟ بياكلوا صراصير! الله يقرفهم، فجا لْهُم المرض. إحنا نبقى بنصلي ونصوم ونحج بيت الله ونمرض؟! لا يمكن طبعًا!

أجابها محمود ابنها البكر، الذي يعمل ممرضًا في مستشفى حميات قريب:

- يا أمي ربنا يخليكِ ما فيش نزول، عايزين نقنن الانتشار.

- نـــ... إيه؟ أنا مواعدة الست فتحية بتاعة الجرجير هاخد منها خضرة صابحة النهاردا.

تمالك محمود أعصابه بأعجوبة حتى يُفهِم والدته الأمر بشكل صائب، وأخذ يشرح لها أعراض المرض ويخبرها أن من توابعه -لا قدر الله- الموت، ولا تزال الحاجة مستميتة على خضرة الست فتحية ثم أردفت:

- يعني هناكل منين؟! أنا باجيب طلبات البيت وانت من أول النهار في الشغل والمزغودة دي.

أشارت إلى فتاة في السادسة عشرة من عمرها ممسكة هاتفها المحمول بلا مبالاة، تجلس على أريكة الصالة بين خُضرة أمها التي تعكف على تحضيرها لعمل المحشي.

ثم أكملت وصلة العتاب الشهيرة:

- وأبوك في الشغل من أول اليوم لآخره لحد ما اتعدم.

- ما فيش فايدة يا محمود، أمك هتعمل اللي هيَّ عايزاه.

قالتها شيماء بخبث شديد.

- إنتِ ما روحتيش المدرسة ليه؟ مش ثانوية عامة يا هانم؟!

- قفلوها يا ماما، قفلوها.

غادر شبشب الحاجة من بين كعبيها منتشرًا في أركان الغرفة بالتساوي على وشك أن يدركها.

- ابقي قابليني لو فلحتي، طول ما انتِ ماسكة المخروب.

ثم رمقت الحاجة تلك الآلة الحديدية التي تقضي شيماء عليها معظم الوقت بحنق شديد.

- المخروب دا هو اللي بيعرفنا أخبار الدنيا يا ماما، بصي شوفي كم حالة ماتت وتعبت من المرض.

تهربت أمها من مشاهدة الأخبار المتعلقة بالأمر، ولعدم سيطرتها على انزلاقات شاشات الهواتف الحديثة استسلمت.

- إنتِ مش غاوية علام، خليكِ في المحشي زي أمك.

توالت الصرخات من شبشب الحاجة وتبعتها أيضًا بعض الضحكات بين الأخوين، المهمة صعبة عليهما، كيف سيقنعان الوالدة أن تُغيِّر مسار يومها من أول فرز الخضرة مع الست فتحية مرورًا ببدرية بائعة البيض والجبن وآخر الجولة التي تقضيها عند عم عبده البقال لخزين الشهر.

قاطع سير المشهد الدرامي الذي نراه في كل بيت مصري زائر يطرق الباب بشكل متكرر، كان الأستاذ منير صديق والدهم.

أخذ يبعثر كلمات بصوت خافت ثم رددها عالية:

- البقاء لله، شدوا حيلكم.

سمعت العائلة هذا فانقلبت كل الضحكات إلى صرخات، حتى إن شقق العقار كله بادرت في تقديم الواجب من ولولة، والغريب في الأمر أنهم لم يعرفوا سبب البكاء حتى الآن.

- بس يا أمي، خلينا نعرف فيه إيه.

قامت شيماء لتهدئة أمها في حزن.

- أبوك الأستاذ فكري تعيش انت، وقع من طوله، خدناه على المستشفى، قالوا إنه مريض -والعياذ بالله- بالفيروس الجديد.

- شد حيلك، إنتَ راجل البيت وأنا زي ابوك.

- رحمتك والصبر يا رب.

رددها محمود في أسى وحزن.

نُصِب سرادق العزاء، جاء الشيخ نعيم لقراءة القرآن ثم لحق به المعلم متولي وعم عبده البقال وتَبِعه حماصة، في حين صعدت بدرية والست فتحية صديقات الحاجة زينب لتقديم واجب العزاء في الشقة. والطريف في الأمر، أن في هذه الليلة قد

حدث أمران في قمة السخرية من القدر، فجأة ودون سابق إنذار هبطت دورية ليلية لأن عزاء الأستاذ فكري أُقيمَ في ساعات الحظر الفعلية، وأنهى الضابط التعزية بعدما قدمت الدورية الواجب وخُلِّد اسم الأستاذ فكري بين صفوفها.

والأمر الآخر هو تغيير اسم القهوة.

- مبروك اليافطة الجديدة!

قالها عبده البقال بحفاوة.

- إيه رأيك في النولوك الجديد يا عبده؟

- طول عمرك مواكب العصر يا معلم، وإلا ما كنتش هتجيب موديل كل سنة في العربيات.

ثم ابتسم بلؤم ورَد مفتعل رابضًا بعينه على أحلام الزوجة الجديدة لصاحب القهوة.

حماصة يخدم زبائنه بالشاي والذي منه ثم تفرغ القهوجي الهمام لتعديل اليافطة قليلًا تجاه اليسار، التي كتب فيها بالخط العربي العريض «ساعة الحظر ما تتعوضش».

«المحبة لا تعرف عُمقها إلا ساعة الفراق»

جبران خليل جبران

المريض رقم صفر

«Index Case»

أحدثكم من داخل حجرتي في العزل الصحي تحت وطأة ذلك الفيروس، حتمًا ستتساءلون ماذا حدث بعد أن فقدتُ الوعي. أنا لا أعلم منذ متى وأنا هنا، لقد تركت خلفي حياة كاملة، زوجة جميلة وطفلين رائعين. أذكر أنني كنت أعمل محاسبًا لمكتب صرافة في مجال السياحة وكنت أذهب إلى المقهى وأتردد على أصدقائي، أشياء كثيرة لم أعد أراها الآن.

لذا، استمروا لمعرفة بقية القصة.

كان يوم الأربعاء شديد الحرارة وقت الذروة، انتقلت إلى القاهرة لظروف عمل طارئة، وفي أحد المولات التجارية لمقابلة عميل ما حينها، صعدت السلم الكهربائي وأنا ألهثُ بشدة.

الحمى تتصاعد كما تتصاعد ألسنة اللهب في جسمي، الجلبة حولي تزداد فخارت قواي مرة واحدة ثم فجأة فقدت الوعي.

لم أسمع إلا دوي سيارة الإسعاف.

أكاد أن أفقد أنفاسي، عيني تتملص في مواربة نفسها لأجد جسمي مُلقًى على أحد أسرة مشفى موصولًا بجهاز تنفس وبعض المحاليل التي أُتخِم ذراعي بها. لم أرغب في التحرك شبرًا فأنا منهك وحرارتي تحاصرني كظلي، أحاول تثبيت نظري فلمحت شخص أومأ إليَّ برأسه ثم تحدث ببطء، على الأغلب هذا الحاجز على أنفه يبعثر الصوت هنا وهناك.

وفي وسط رؤية ضبابية تساءلت: ما هذا الذي يرتديه؟ إنها كمامة على الأغلب كالتي يرتديها الأطباء عند إجراء العمليات الجراحية.

- حسنًا، ستصبح الأمور بخير، لا تقلق.

قالها بنظرة شفقة لم أفهم مغزاها.

- عن ماذا أقلق وأين أنا؟

بدأ الخوف يتسلل إلى قلبي وشعرت بقبضة في أعلى صدري، أردت أن أرحل فهممت بإزالة تلك الأنابيب وولجت من الباب، بعدها انتقلت إلى الردهة، لقد كان هروبًا آمنًا على كل حال.

لم أجد أي مقتنيات، كنت مُجرَّدًا من كل شيء!

فتشت عن منفذ للاتصال حتى أطمئن على أهلي، وجدت أحدهم عند ناصية الشارع، كان الرجل لطيفًا معي حين عرف أنني لا أملك شيئًا، احتسبها مكالمةً مجانيةً فغمرته بالشكر.

وقتها داهمتني فكرة جيدة، أن أعمل بعائد يومي بسيط حتى يتسنى لي الرجوع إلى حيث أقطن، فوقفت مع بعض العِمالة اليومية في الشارع حتى استأجرني أحدهم لهدم حائط في شقته.

خمسون جنيهًا كانت كفيلةً بتقبل مزاجية الرجل.

كلما عطستُ ابتعد وسألني إن ذهبت إلى طبيب. إنه شخص غريب الأطوار، من يعطي نزلة برد عابرةً كل هذا الاهتمام!

- عطسة واحدة هي بمثابة سرطان اليوم!

قالها هو باحتدام.

لكن فرحت بالمبلغ رغم بساطته وأردت أن ابتهج وسط تلك الأعراض الساحقة، دلفت إلى باب مطعم، سرعان ما حضر النادل وسألني عن الطلب وأخذت معكرونة بالبشاميل إذ إنني أحبها من يد زوجتي.

«طعام الزوجات لا تَبْرَع المطاعم في تقليده، لأن مقاديره من الحب».

أخذت أسدد اللقيمات إلى فمي بشراهة مثل لاعب كرة قدم بارع، لم أشعر بالطعم المعتاد نفسه أو بأي نكهة على الإطلاق، كأن حاسة الشم مُعطَّلة لكن إحساس الشبع قد انتُهِيَ منه على أكمل وجه، ثم لمحت على شريط الأخبار في التلفاز المُعلَّق على حائط في المطعم:

«تنويه.. إذا وجد أحدكم شخصًا بهذا الاسم فليُسلِّمه إلى أقرب مشفى».

اتسعت حدقتاي واعتراني الخوف، وما طمأنني قليلًا أن لا أحد يعرف اسمي الرباعي هنا.

قاطع النادل تفكيري الحائر معلقًا على الخبر:

- مصابنا كبير! أتعلم أمرًا، يقولون إن من تظهر عليه الأعراض يموت على الفور.

مرر إليَّ فاتورة الغداء، دفعتها وأنا شارد الذهن ثم غادرت بعد أن اغرورقت عيني بالدموع؛ هل أنا مريض بفيروس حقًّا؟!

لن أذهب في الوقت الحالي إلى زوجتي، بالطبع حتى لا أثير ذعرهم، فانطلقت إلى منزل والدتي؛ أريد الاختباء حتى لا يعثر الموت على مكاني.

«فنحن بين أحضان أمهاتنا أحياء، وكل الشرور تختبئ في جحورهن».

هرولَتْ على السلم، مدَّت يديها بصدر رحب.

- عادل، كيف حالك يا بني؟

- لا يسُر يا أمي.

- أنت مريض يا عادل؟ أخبرني حسام أنه رأى اسمكَ ضمن أسماء المرضى المتغيبين عن المشفى.

- أخي يعلم ولم يحدِّثني!

- اعذره يا بني، المرض مُعدٍ وهو لا يريد أن يضر أولاده، وغير ذلك هو غاضب من قصة هروبك تلك.

- أنا لست هاربًا، أنا خائف يا أمي!

رمقتني بنظرة حانية ويدها عابرة نحوي.

- خذي حذرك، فأنتِ قلتِ إن الأمر مُعدٍ.

- يا ولدي لقد سهرت من أجلك ليالٍ في صغرك، وحين ارتفعت حرارتك كنت أحضر لك كمادات الماء البارد، والآن أتملص منك؟!

اندفعت دموعي وصرخت بحيرة:

- آه يا أمي، لا أريد الموت، أريد أن أعيش!

- الموت يا ولدي هو الحق، لكن الفراق هو ما يختلج صدورنا.

الدموع تنهمر كنهرٍ جارٍ والأعين يكسوها الوجل، وفجأة قرع أحدهم الباب.

- سيارة الإسعاف تنتظرك.

مهلًا، إنه حسام أخي، نبرة الصوت تفضحه.

- لن أذهب.

قلتُها في تردد ودون وعي.

- أعرف أنك لا تريد ملامستي، لكن سأخبرك أمرًا، أول من لامسك عندما هاجمك الجدري صغيرًا، أول من لامس أوجاعك كان أنا يا أخي.

انهار حسام كليًّا ثم احتضنني بقوة، اعتدت عليه متزن الهيئة، لم أرَه هكذا من قبل، ظل متشبثًا بي طويلًا ثم قال:

- سامحني!

وأخذ هاتفه المحمول واتصل بأحد وبنبرة حادة:

- آسف يا سيدي، المريض المبلغ عنه هرب.

نظر إلى عيني كأنه يقول: لُذ بفرارك.

الهلع يلاحق أنفاسي بين توجس وأفكار مهشمة، أحدث نفسي تارة: «سيبلغون المشفى»، وأخرى: «لا أريد ملامسة أمي خشية أن أصيبها»، سأبحث عن فندق ذي نجمة منخفضة أبيت فيه وغدًا سيخرجنا منها الله.

في صباح اليوم التالي، صحوت مسرعًا على دقات الباب المتتالية.

- صباح الخير سيدي، نسخة من هويتك الشخصية، من فضلك.

تحججت بأنها وقعت في أحد أركان الغرفة، لم يقتنع الرجل المسن، ربما لأن أعراضي تزداد.

الآن حرارتي 39 درجة ونصف، رأسي يفجره الصداع ولم أنَمْ جيدًا من شدة السعال.

طلبت منه أن أتصل بزوجتي حتى تجلب معها الأوراق، كنت سعيدًا أنني سأرى هالة بعد يومين عصيبين، لمحتها تتحرك في حذر، هل هي أيضًا خائفة مني يا ترى؟!

- سامحني يا عادل!

قالتها بانكسار، وعلى بعد عدة أمتار بيننا تساءلتُ داخلي: ماذا فعلتِ أنتِ أيضًا؟

حسام تلفظها المرة السابقة وجاء بالإسعاف، مِلْتُ بجسمي نحوها.

- ألم تشتاقي يا هالة؟! إنهما يومان لكنهما ثقيلان على روحي.

- أشعر بك يا عادل وأتمنى شفاءك، لكن الأولاد...

أخفضت رأسها باكية.

- لذلك لم تقتربي مني؟

نظرتُ إلى عينيها، أجابت هي بشرودها فتقابلت رسائلنا التي نريد الحديث بها، طمأنتني على صغارنا ومدَّت يدها كي

تحتوي ذعري، حينها تعالت أصوات سيارة كان فيها رجل شرطة، انسحبتُ من المكان بعدما ودَّعتُ هالة وجعلت أولادي أمانة بين يديها.

أخذت أحدث نفسي: يا الله، ستهرب من الشرطة! ماذا تفعل بنفسك يا عادل؟! حتمًا سيقبضون عليك، إن لم يكُن اليوم فغدًا!

صوت السيارة يقترب، وأنا أهرول مبتعدًا، يحذرني الضابط من محاولة الهرب.

بخطواتٍ متثاقلةٍ يجرها المرض نحو الهلاك أركض، ثم انتصر الفيروس ووقعت مغشيًّا عليَّ أرضًا.

«حسنًا، لقد ارتاح العالم مني، فأنا جرثومة كبيرة وعند رحيلي سيكون البشر في أمان».

كل ما أراه الآن حائط إسمنتي وسرير أبيض حديدي أغطيته مبعثرة الأطراف، كثير من العقاقير بجانبي، لم أرَ الشمس كل هذه المدة، لم أتحسس حتى ملامحي، هل ازرقت عروقي

وصرت كالموتى؟ هل أنا ذلك الشخص الذي كنتُ عليه من قبل؟

ثم قاطع تساؤلاتي تلك مساعد الطبيب:

- لقد شُفِيَت الحالة صفر أخيرًا.

قالها وهو يعد العقاقير لتحضير جرعاتي اليومية.

- نقلتَ العدوى إلى كثيرين، وعجبًا للقدر، أنتَ من يتحسن وهم يموتون!

- أنا لست بشعًا، لم أُرِد أذية أحد!

قلتُها في نوبة بكاء، أعصابي منفلتة بعض الشيء، سرعان ما حاول هو تهدئتي.

- لا عليك، كلنا ندخل في مِحَن، ستكون الأمور جيدة.

طرق أحدهم الباب، وبمسافة محسوبة اقترب ثم قال:

- كيف حالك؟ نأمل أن تكون بخير، لقد ابتسم الحظ في وجهك وأعادك إلى الحياة.

- ما قصة الحالة صفر تلك يا دكتور؟ لقد رددها مساعدك من قبل.

- أنت هو الناقل الأول للعدوى، انتشر الفيروس من خلالك، لا نعلم ماذا لمست أو مع ماذا تعاملت. كل الدول أعلنت عن مريضها الأول، وصعب علينا الإعلان عن هذا بسبب هروبك، ومن خلالك سنتتبع كل من تعرفهم حتى لا تتفاقم العدوى. في البداية لم نعتقد أنك هو، لأن سنك ثلاثون عامًا وكل الحالات المؤكدة فاقت هذا العدد بمراحل، وحين هربت من المشفى لم نهتم، لكن بعد اتصال أخيك وقلق زوجتك، علمنا أنك الناقل الوحيد للمرض، فحتى الآن ثبتت كل الأعراض إيجابية في المشفى.

- حسنًا، فأنا مجرد عدد، لكن أفهم من ذلك أنني لست مريضًا الآن.

- نعم، ولقد شُفِيَت حالتان ممن نقلت إليهم العدوى، صاحب المحل الذي أجريت من عنده مكالمتك ووالدتك أيضًا شُفِيَا بأمر الله.

- ماذا عن الآخرين؟

- للأسف لم نقدر المساعدة، نادل المطعم تلقى العدوى بشراسة.

- وزوجتي ماذا عنها؟

تظاهر الطبيب بعدم المعرفة.

- ماذا أصابها؟ أخبرني من فضلك؟

- مناعتها ضعيفة، لكن نأمل شفاءها، هي أول من أخذ العدوى، آسف على إبلاغك بالأمر!

أصابتني حسرة، لم أُرِد أن يصيبها مكروه فهي حبة القلب، من سيرعى صغارنا؟ من سيعتني بي بعد الآن؟

طلبت من الطبيب أن تتلقى هالة العلاج بجانبي، لن أغادر المشفى دونها.

رأيتها اليوم للمرة الثانية، مكثت برفقتها أُطمئنها قائلًا لها في ود وعطف:

- شُفِيتُ منه يا هالة وأنتِ ستفعلين، كما أعطيتكِ العدوى سأبحث عن مصل الخلاص يا حبيبتي.

- أرجو هذا من الله يا عادل، لقد كان وقتًا عصيبًا، لم نمر بأزمة هكذا من قبل، لم أرَ الشمس طيلة شهرين.

- لمَ لا تأتين معي لرؤية الشروق؟

أردت أن أحمسها وأدب الحياة في شريانها.

اقتربنا من نافذة الغرفة معًا، جلست هي على الكرسي المقابل وأنا مددت يدًا نحوها والأخرى نحو الشمس التي تسللت أشعتها داخلنا، استشعرت دفئها كطمأنينة تسري في كامل أوصالي، لقد طال شروق الشمس أرواحنا معًا، أشرقت روحي وغربت روحها إلى الأبد.

«تعلمتُ أن الشجاعة ليست غياب الخوف، ولكن القدرة على التغلب عليه»

نيلسون مانديلا

أنا والسيد كوفيد-19

بوادر الأمور لا تطمئن، أنا وأدهم نعمل في مشفى الحياة في قسم الأمراض المُعدية منذ أكثر من سبع سنوات، كل ما كان يجمعنا هو الواجب المُحتَّم علينا ممارسته وبعض الزيارات الودية التي انقلبت بعد ذلك إلى علاقة وطيدة تكللت بالصداقة. واليوم يصل إليَّ هذا الخبر المشئوم، لقد أصيب أدهم جراء ملازمة أحد ناقلي عدوى الفيروس المنتشر في الآونة الأخيرة، وللأسف تفشى فيه بعدما تجلت كل أعراضه مجتمعة، لم نعرف صفاته حتى الآن، هو أشبه بموجة السارس العابرة منذ وقت مضى وأقرب إلى إنفلونزا الشتاء المعروفة.

انطلقتُ بسيارتي النيسان «Sunny» على الطريق السريع حتى يتسنى لي رؤيته في المشفى قبل نقله إلى العزل، وأنا أقلب

كل الأفكار عن احتمالية شفاء أدهم انعطفت جانبًا بعدما ظهر ضوء قوي بشكل لافت أدى إلى انحراف حاد لسيارتي، لم أدرك وقتها هل أُصِبت أنا أم المصاب بها.

لكن ما وقع كان قدري بعض الشيء، من دون سابق إنذار وبعد استجماع الأمر، ظهر ظل أسود لرجل على طرفَي الطريق، طويل القامة بشكل مخيف، ذو أنف رفيع وذقن مكتنز، عيناه جاحظتان وبهما زرقة أو احمرار من انعكاس مصابيح سيارتي. أخذ بيدي ثم حملني إلى داخل سيارته، ولا أتذكر بعدها سوى نقلي إلى منزله وقد أُسعِفَت تلك السحجات على جبيني من قوة ارتطامي بجسم السيارة.

تعجبت ممن يحمل غريبًا إلى منزله حتى يعالجه!

ربما هو ملاك من السماء، لا يوجد بشر على هذا الطريق الخاوي على ما أعتقد.

سؤال ملح بادر إلى ذهني يريد أن يطرح نفسه: لمَ أجواء غرفته كئيبة بعض الشيء، كأن سوائل دَبِقة منذ زمن بعيد انغمست بحائطها؟ ولمَ هو مريب هكذا؟

نظرة عينيه، تصفيفة شعره وصمته المتزن، كل ما في ملامحه يوحي بذلك، شعرت بشيء من الغرابة لكن لا يسعني سوى أن أبلغه بامتناني لإنقاذ حياتي.

- شكرًا لك يا سيد...

قلتها بحفاوة وانتظرت رده.

- كوفيد «Covid».

اندهشت برهةً فأكدها على مسمعيَّ:

- اسمي السيد كوفيد، وأنت؟

- خـــ.. ـــا.. لـــ.. ـــد.

نطقتُ الحروف في تردد.

اقترب حتى يودعني مصافحةً، كان متشبثًا بيدي بشكل مثير للشك، هل هو احترام زائد أم ود مبالغ فيه؟ ومن يكون اسمه «كوفيد» في هذه الحياة؟!

على كل حال تركته ثم انتقلت إلى المشفى.

خطوت إلى الردهة باحثًا عن غرفة أدهم بعد ما ارتديت بدلتي الوقائية وكمامة طبية.

- هل تأخرت عليك؟

ابتسمت وأنا أقولها له.

- هل التقيتَه يا خالد؟

بصوت محشرج سألني، تعجبت للسؤال:

- من تقصد؟!

- السيد كوفيد.

اتسعت عيني وارتعشت أطرافي، كيف عرف أدهم بتلك المقابلة؟!

- من أخبرك بهذه المقابلة يا أدهم؟

- هو من أخبرني، أرجو أن لا تكون قد صافحته.

- ليس هناك مزيد من الوقت يا خالد، سينتهي أمرنا جميعًا، لقد جاء ليأخذنا إلى جحيمه، سنموت قريبًا!

أردت أن أفهم ما يحدث، لكن تريثتُ قليلًا بعدما وجدت أدهم غير قادر على التنفس، كلماته متلعثمة، لا يزال يغمغم ثم بدأت عروقه تتلون بالأزرق الداكن وجفناه يتسعان بشكل كبير، حرارته أصبحت كالجمر حتى سعاله لم يهدأ فينة، ربما يحدث ما لم أتخيله وما لا تُحمَد عقباه، كل احتمالاتي كانت عن الشفاء فلماذا يتعجل الموت الآن؟! يحذو نحوه ولا يترك أي فرصة للبقاء.

أخذت أجهزة التنفس الصناعي وأوصلتها ثم ضغطت زر المساعدة الطبية؛ لا أريد أن يموت صديقي وأريد أيضًا معرفة القصة كاملة.

للأسف لم يمر كثير من الوقت حتى لفظ أدهم أنفاسه الأخيرة، تركني بين شك من أمر تلك المقابلة وحزن على فراقه.

«المرض يغلبنا حين نخبره أن الفراق عزيز على قلوبنا، علينا أن نهزمه ونقول إن الموت حقيقة حتى يتركنا وشأننا».

مسحت دموعي التي ذرفت في وداعه وجهز أطباء المشفى جنازة بشكل لائق، ثم أخذت أنا استراحة لمدة يومين من كل

الأحداث الماضية حتى أستوعب كل ما حدث وما علاقتنا بهذا الرجل المخيف. وطبقًا لحديث أدهم، لا بد أن يكون هو أيضًا قابله.

هل هو شخص غريب عنا؟ ربما انتقل حديثًا للعيش هنا. أم إنه رجل من عصابات المافيا ومتخفٍّ تحت كُنية مستعارة مثلًا؟

الاحتمالات كثيرة، لكن كل ما أريده الآن هو النوم.

ذهبت في اليوم التالي حتى أرى ملف أدهم الطبي لعلي أجد ما يجعلني أفهم شيئًا، تسلمت الورق من الطبيب المعالج لحالته وفرزت ما فيه بعناية وقرأته بدقة، وجدت في منتصف الأوراق أسطوانة CD مسجل عليها فيديو من كاميرا المشفى لغرفة أدهم.

بدأ الفيديو، الهدوء يخيم على ملامحه، مستلقٍ هو على سريره في أول مراحل النوم والغرفة مرتبة، النور مطفأ ولا شيء يدعو إلى الذعر، ثم بدأت ألمَح خيالًا أسودَ يتشكل على الحائط وتظهر

صفاته أكثر كأنه شيء أو مخلوق فضائي ذو سنون حادة مدببة على هيئة كرات متراصة بتساوٍ.

أخذت الكادر من زاوية أكبر، ظل يستنجد ويصرخ:

- لا أريد الموت! لا أريد الموت! ارحمني سيد كوفيد!

لم تكن تلك خيالات، كان يحدثه حقًّا، لا أعرف ماذا حدث لكن انطفأ جهاز الكمبيوتر ومن ثم أغلقت شاشته، فهممت بالمغادرة وإذا بسائل أسود لزج ينهمر بغزارة، يتسع ببقع ممتدة على الطاولة ثم في أرجاء الحجرة كلها، تفحصت الأمر عن كثب ثم ركضت مسرعًا جاذبًا حقيبتي ومفاتيح السيارة عن المنضدة.

هرولت إليها ثم أوصدت الباب جيدًا، فوجئت على الكرسي الملاصق لي برسالة ملقاة وأنا لم أترك أي أوراق هنا، فتحتها.

«تلقيت للتو دعوة للعشاء مع السيد كوفيد، سينتظرك هذه الليلة».

لم أفهم مغزى الأمر ومن أرسل تلك الرسالة، هل أحد يريد أن ينتقم مني أو من أدهم مثلًا؟

كلها هواجس بالية بفعل الصدمة، أدهم توفاه الله والسيد كوفيد ما هو إلا خيال أو خدعة لا يمت إلى الواقع بصلة. أدرت محرك سيارتي واتجهت إلى المنزل لآخذ قسطًا من الراحة.

وأنا أبدل ملابسي، إذا بالسيد كوفيد ممددًا على الأريكة المجاورة لسرير غرفتي.

- مرحبًا أيها البطل! دعوتي على العشاء ألَا تزال قائمة؟

- لا أريد تناول العشاء معك.

- لكن أنا أريد ذلك، سأنتظرك على أريكتك المفضلة هذه، جهز نفسك سريعًا.

تركني وأنا خائف من محادثته.

إن رفضت، ماذا سيفعل؟ يبدو غاضبًا مني فاضطررت إلى قبول العرض لكي أعرف مزيدًا عن هذا الرجل.

بدأ مستطردًا حديثه:

- أنا رجل عصامي، بنيت ذروة الشر في حياتي بنفسي، لم أعتمد على أحد، كنت ضعيفًا في بادئ الأمر، وبفضل صديقك

وأمثاله من الضعفاء تتجدد طاقتي، أصبح أقوى عندما أقتات عليكم.

قالها بتهكم.

- حسنًا، وماذا تريد مني على وجه التحديد؟

- وجدتك مختلفًا، متمردًا لا تأبه الموت، يمكنك القول، أردت أن ألقنك درسًا لن تنساه.

ثم ضحك بخبث مبالغ فيه.

أجبت بتحدٍّ واضح:

- ولِمَ لا ألقنك أنا هذا الدرس ولن تنساه أيضًا؟!

بدأت نوبة غضب جديدة تعلم بدايتها، عندها أمسك بالطاولة هشمها إلى أجزاء متناثرة وسكب كل ما كان على مائدتها أرضًا ثم غادر، وأنا في حالة ذهول جالس على الكرسي الخشبي الهزيل.

شقة أدهم، شيءٌ ما دفعني وقال أنْ أبحث هناك ربما سأجد الحل. صعدت السلم وأذكُر أنه ترك لي من قبل مفتاح شقته حيث كنا نعمل معًا.

بعثرت كل شيءٍ بحثًا عن أي دليل أو رسالة ورقية مثل التي وجدتها، فتشت الغرف كلها، لم يتبقَّ سوى هذا الصندوق الصغير بجانب الرف عند الشرفة، عثرت على ورقة مشابهة لورقتي كانت في الصندوق، مكتوب أعلاها:

«أنا السيد كوفيد..

أنا المرض الذي سيُهلِك ملايين من البشر..

أنا الشر المنتصر..

أنا ظلام قابع في أراضيكم..

اهربوا إلى حيث شئتم فالسيد كوفيد سيجدكم»

إمضاء: السيد كوفيد-19

نتمنى لكم موتًا سحيقًا!

رسالة أم تحذير أم تعويذة؟ ما هذا الشر الذي يكمن في تلك الكلمات؟! أحدث نفسي في توجس.

ثم أغلقت الصندوق والتقطتُ الورقة مسرعًا نحو سيارتي، وصلت إلى مدخل شقتي، انطفأ مصباح إنارة المنزل.

«ظلامه حلَّ علينا، ربما الموت يقتحم بيوتنا الآن ونحن لا ندري».

جلبت شمعة بجانب السلم حتى أضيئ المكان، تذكرت أن السيد كوفيد أخبرنا في رسالته أنه لا يأتي إلا في الظلام، لذا أردت أن أطفئ النور.

لا بد من مواجهته، لقد خسرت أعز أصدقائي وبالكاد لا أرغب في خسارتي أيضًا.

«أنا طبيب أُهدي النور إلى مَن وقع في ظلمة الشقاء، إلى مَن نهشه المرض وحيدًا».

سمعت ضحكات لها صدى مكرر، وبصوت أجش:

- أظهر لك في الظلام، لا بد أنك تريد مقابلتي.

واستمرت الضحكات الشريرة كأنها تعلمنا عن قدوم ذلك الكائن المخيف.

- لا أريد مقابلتك، أريد الخلاص منك!

- ما مِن أحد يتخلص مني بهذه السهولة أيها الأحمق، فمصيرك الموت أو الموت أيضًا.

ثم صاح بصوت زاجر وقال:

- لدومًا ما أحببت صديقك وهو أيضًا حدثني عنك، لكنه كان ضعيفًا، لم يتمرد مثلك.

نظرت إليه باشمئزاز وهو كالهلام الأسود أو القطران السائل، لا يتشكل إلا لزجًا، يستعد للمعركة.

أخذ يزوم في ضجر:

- أنا ابن عائلتي التاسع عشر، لست طفلًا صغيرًا أو جرثومة مستهلكة حتى تقدر على إبادتي أيها البشري الحقير!

ركضت مسرعًا إلى غرفة العقاقير خاصتنا، كنا نعمل عليها مؤخرًا ضمن مشروع بحثي عن الأوبئة وكيفية الوقاية منها،

بحثت عن مادة «هيبوكلوريت الصوديوم» التي تدمر البروتين في جسد السيد كوفيد-19.

وقف أمامي في ذهول يتساءل:

- هل هذا السائل البسيط التركيب هو ما سيقتلني؟!

قلت له بنبرة تحدٍّ:

- سنرى أيها السيد المتغطرس.

قذفت كل محتوى المادة في وجهه، سمعته يئن وكل خلاياه السائلة تتبخر، لم أرَ كتلته السوداء، إذ بدأت تتلاشى واختفت معها تلك السنون المدببة، كدت أنتهى منه.

صاح بقوة قائلًا:

- ستندم على فعلتك أيها الكائن البشري، سيعود السيد كوفيد للانتقام!

- ها أنا قد نجحت، لقد قتلته، لقد انتصرت عليه!

قلتُها بغبطة.

- لقد انتقمت لروحك يا أدهم، أرقد في سلام يا صديقي.

الساعة لم تتعدَّ السادسة والنصف صباحًا، رتبت فوضى السيد الميت ونظفت الغرفة ثم حملت معي سترة شتوية لأخفف من نسمات الصباح الباردة، فأغلقت الباب خلفي وبدأت الركض في شوارع المدينة وأنا أحدث نفسي مازحًا:

- لعلِّي هذه المرة أقابل سيدًا جديدًا أقضي عليه!

«المجتمع الذي ينكر وجود مرضٍ فيه،
هو كالمسلول الذي ينخرُ المرضُ في
رئتهِ وهو يأبى أن يستمع إلى ما
ينصحه به الطبيب!»

علي الوردي

زوجي وكورونا

برودة الطقس تعتري جسمها، الشتاء على أهبة الاستعداد وهكذا رائحة المرض في كل مكان. أغلقت نادية سماعة هاتفها وأخذت تدور في دوائر من الشرود والتردد، لم ترغب في أن تخبر العائلة بالأمر لكنها في أمس الحاجة إلى من يقف إلى جوارها في ظل هذا الظرف العسير، فارتدت معطفها الثقيل على عجالة وجهزت زوجها ثم أقفلت باب شقتها باندفاع.

على مقربة من الشارع الرئيسي، أخذت تلوح في عطف وهي تُخفي عن أنظارهم كثيرًا من الخوف، هامسة بحذر تدعوهم أن يتركوا جدار تلك الشرفة، لكن أطفالها في غاية التشبث.

لم تكن تعلم متى ستأتي تلك السيارة، لكن كل ما كان يدور في خلدها هو أن لا يلتفت لهما أحد، بخاصة تلك الجارة الثرثارة التي تقطن في طابقهما الثالث، دومًا ما عرفتها فاضحة للأسرار. أخذت تزيل عرقها المتناثر على جبينها بمنديلها الورقي في ذعر وهي هائمة النظر إلى ملامحه، إيهاب غارق في الحمى وازداد السعال عن المعتاد، رَجَت الله أن يلطف به وأن يزيل تلك المسألة برمتها.

هاتفت ذلك سائق السيارة مرة أخرى:

- في طريقنا أرجو الالتزام بالإجراءات الوقائية كافة حتى نصل.

- في انتظاركم.

قالتها في تردد.

هل ستفعلها حقًّا؟ هل ستزج به إلى أحد المستشفيات التي تعالج هذا الفيروس اللعين، وهي التي في ريبة من الأساس؟ هل إيهاب مريض أم إن الخوف يعتريها هي فقط؟

تحدث نفسها بصوت مسموع:

- ماذا أفعل؟ ألهمني الصواب يا الله!

أيقنَتْ أن عليها الاتصال بأحد أقربائها حتى يؤازرها في مصابها، اتصلت هاتفيًّا بأحمد أخيها، لم يتأخر هو نظرًا إلى قرب مكان سكنه. شَار عليها بأن لا تذهب إلى المشفى فهناك المصاب قد لا يُشفى ومن يدخل سليمًا لا يخرج إلا على حمالة الموتى.

تشاءمت كثيرًا، كان في قلبها شوائب خوف.

ماذا عن سيارة الإسعاف القادمة إذًا؟!

هنا قاطعها أحمد واتصل بالمركز الطبي لإخبارهم بأن الحالة اشتباه كورونا ولا تستدعي كل هذا، وأن المريض أهله سيتكفَّلون بعزله منزليًّا. هكذا كان يرى أخوها وحتى بقية أفراد عائلتها، لم تُرِد أن يتخطى الأمر، بعض العلاجات التقليدية ربما حتى لا يشتم أحد رائحة المرض فيشمت فيهم، وربما لأن نادية نفسها لا تخوض مثل تلك المعارك وحدها.

أخفت رفضها لذلك القرار أمام أخيها حتى لا تزعجه وبدأت في استعدادها للنضال من أجل بقاء زوجها، ستنتقل إلى شقه أخرى حتى تتوارى عن الأعين وتسلم الألسنة.

دومًا ما أحبَّ إيهاب هذه الشقة واحتجزها للطوارئ، نظرًا إلى الطبيعة الريفية الخلابة، إذ تُطِل على مساحة زراعية خضراء وتتمتع بالهواء العليل، تبرر أن هذا الطقس ربما سيدب الحياة في ما أفسده ذلك الوباء.

كان إيهاب مستسلمًا لقرار زوجته، لا يعلم ما يحدث حوله، ترتفع درجه حرارته ثم يدخل في شبه غيبوبة، يقبض صدره الألم وحشرجة النَّفَس تستمر، شفتاه متشققان من تأثير الإعياء الشديد. لم ينفك الهاتف عن الصمت ولو مرة، اتصلت الآن الحاجة حميدة.

- هل تحسَّنَ يا نادية؟

- لا أعلم، لقد ازدادت حرارته إلى ما فوق 39، وذهبت إلى الصيدلية لأحضر خافضًا وبعض المسكنات.

- اغلي قليلًا من ورق الجوافة وغرغرة بالماء والملح، والأهم، أزيلي هذا القلق من رأسك.

- ولكن أعراضه كلها تقول إنه مصاب بفيروس...

لم تكمل جملتها تلك حتى نهرتها بشدة:

- فال الله ولا فالك! سيتحسن قريبًا.

ثم بادرت أيضًا بالاتصال بوالدتها طالبةً منها الاهتمام بالصغيرين، أن يمكثا عندها لمدة حتى يتسنى لها مداواة والدهما.

كان الخوف يأكل روح نادية ببطء؛ هي التي لم تبتعد عن الصغيرين التوأمين آسر وأمير، تريد الآن إقصاءهما من المشهد، كأنها تعلم في قرارة نفسها أن إيهاب لا يمر بنزلة برد عابرة. لكنها قلقة أن تجهر بها بشكل مُعلَن، مرتابة من رد فعل أسرتها وزميلاتها في العمل ومن شعور إيهاب- إذا كانت حقًّا موجة إنفلونزا وهي من أقحمت ذلك المرض الفتاك في الأمر.

تعبت نادية ودار رأسها قليلًا، فغَفَت من دون قصد على كرسيها الكائن بجوار سرير زوجها بعدما انتاب قلبها الضيق، ثم فجأة استيقظت على صوت أحدهم يقرع باب الشقة، فتحت في حيرة، من يعرف مكانهما يا ترى؟

كانت الحاجة حميدة الأخت الكبرى وبمثابة الأم لإيهاب، ذهبت بدورها للاطمئنان عليه ووبخت نادية قليلًا على مسألة المشفى، ثم همَّت بغليان بعض أوراق أعشاب عديدة في البراد نفسه، وهذه الخزعبلات كلها لم تُجدِ نفعًا، نادية فقط من تعلم أن الأمر اشتد بأسُه.

كان لديها شعور غريب يقبض أعلى صدرها، تحاول إخفاءه عند السجود في صلاتها، كثيرًا ما تدعو أن يزيل المرض عن زوجها وحبيبها وعِشرة خمس عشر سنة، تتألم ولا تشكو، وحيدة ضائعة دونه، تتردد بين المستشفيات والعلاجات كالمجنونة، وعلى بغتة منها في يومها السابع الحاجَّة تغط في نوم عميق، ونادية تذهب لإعطاء إيهاب جرعته اليومية من الدواء، لترى لونه محتقنًا وعيناه تحدقان إلى أعلى. نظر إليها نظرة أخيرة وهو غير قادر على الحراك، ثم بدأ النبض يضعف،

كل هذا في لحظة واحدة ولكنها مرت عليها كساعات، صرخت بصوت مكتوم، ارتمت عليه، احتضنته.

- قُمْ، حدثني يا إيهاب، لم أقصد!

وأخذت تبكي بشهقة عالية، علمت أن الفيروس هو ما اقتنص زوجها من حضنها.

مالت على صدره حتى تستمع إلى نبضات قلبه أكثر لكن الفراق سبقها واحتضن زوجها إلا الأبد.

ماطَلَت منذ البداية وهي تعرف الحقيقة، دخلت الحاجَّة حميدة على آهاتها المتقطعة تولول وتنتحب بشدة. نادية في عالم آخر مكتظ بتأنيب الضمير، أخذت تصرخ بنوبات هيستيرية.

- أنا من قتله! أنا من قتله!

لا أحد يعلم ما بها.

اتصلت الحاجة حمدية بالجميع لإخبارهم أن أخاها الأصغر قد توفاه الله، دون ذكر أي شبهه جنائية تجاه الفيروس، فقط اكتفت قائلة:

- ارتفعت حرارته من نزلة برد، ادعوا له بالمغفرة.

الجميع عادوا أدراجهم ولم يبقَ سوى نادية تتحسس ملابسه ومرقده الأخير، يغمرها الحنين والحزن البالغ، حتى أدويته الملقاة على الرف تلمسها في شفقة، لم ترَ أمامها إلا طيفَ إيهاب الهادي المسكين الذي اغتاله هذا الفيروس على مسمع ومرأى منها دون نزاع، حتى لا تُعاب هي ولا يلتصق باسم عائلتهم الكريمة عار هذا المرض فقدت حبيبَ روحها إلى الأبد.

«تجاهَل أولئك الذين يُسبِّبون لك الخوف والحزن، الذين يحيطون بك، نحو المرض والموت»

جلال الدين الرومي

خمس دقائق

أسرعت تلك الفتاة ذات البشرة الخمرية والشعر المموج في نعومة بإدراج أدواتها وانتشلت عن مكتبها اللاب توب الخاص بها.

شمس ما بعد الظهيرة متقدة والجو حار جدًّا، لذا سحبت زجاجة المياه المعدنية الباردة حتى تعينها على مشقة اليوم ثم أغلقت الباب، وحين أوشكت على المغادرة فوجئت بأستاذ رامي عنان المدير التنفيذي لفرع الشركة.

- صباح الخير أستاذة.

- المكتب مغلق نظرًا إلى ظروف الحظر مستر رامي.

«أو بالأدق، لا أتمنى وجودك هنا» كتمتها في نفسها.

- أعلم ذلك.

قالها بنبرة متسلطة بعض الشيء وربت على كتفها، مما استدعى اندهاش نهى ورجوعها بعض الخطوات إلى الوراء. لطالما زعمت إحدى صديقاتها في العمل أن رامي له صولات وجولات مع شريكاته في العمل، ولا يغفر له أصوله الراقية ولا مكانته المرموقة في السوق هذا الاندفاع الصبياني نحو كل ما هو مؤنث في مكتبه أو في المكاتب المجاورة في الشركة، لذا قررت الانسحاب حتى لا تقع في براثن هذا الكائن. أما هي من تكون نهى ذات الحسب والنسب والجمال الشاهق والذكاء المرتفع، لكن على الصعيد الاجتماعي والعملي لا تضاهيه في المكانة.

- آنسة...

ارتبك لأنه لا يعرف اسمها من الأساس.

أجابت وهي تتقافز بقدمها مبتعدة عنه قدر الإمكان:

- نهى حضرتك.

- شركة واحدة وحتى الآن لا أعرف اسمك!

ابتسامة صفراء ترتسم فكشف هو أيضًا عن ثغره ولكن بطريقة مغايرة لطريقة نهى، فحواها: وددت لو تعرفنا من قبل.

الإعجاب هنا من طرف واحد.

لم يكن نتاج قصة حب، لم يكن أكثر من مشاعر وليدة اللحظة يتعمد أستاذ رامي منحها إلى كل زميلاته، فلم يكتفِ بتلك المغازلة السمجة حتى عرض عليها أن يوصلها إلى المنزل ويخفف عنها حرارة الشمس وتخفف هي عنه حرارة الجسد، مُتعلِّلًا بأنه سيحميها إن ضايقها أحد الأشخاص. وفي تلعثمها ردٌّ عليه حتى تفصح عن رفضها، تناهى إلى أذنيها صوت خمسيني دافئ قائلًا:

- فيه حاجة يا بنتي؟

على ما يبدو إنه يعمل في حراسة الشركة أو شيء من هذا القبيل.

استدار رامي ونظر بدونية متسائلًا:

- من أنت؟

- أنا فتحي يا بيه، حارس الدور اللي فيه مكتب الأستاذة.

- حسنًا.

لم يُوليه أي اهتمام، اكتفى بالإشارة فقط حتى يفتح المصعد.

شكرته نهى في امتنان، دومًا ما اعتبرته مثل والدها في العمر، تعامله بلطف فهو ذو وجه به سماحة، لا يتدخل إلا في شئونه الخاصة، يساعد الجميع دون سابق معرفة ولن تجده جالسًا إلا وفي يده مصحف صغير، اعتاد القراءة يوميًّا في وقت فراغه من العمل.

نظر في عينيها الزائغتين من القلق، وبفطنة أب ورجل عاشَرَ من الوجوه في هذا المصعد كثيرين، رأى أنها تريد الاستغاثة به من تطفل ولزوجة هذا المتأنق ذي البدلة الكلاسيك والشعر المهفهف المرسل إلى الخلف، فاضطر إلى أن يختلق أي موقف حتى يساندها واعتذر من «البيه» -كما يدعوه- بأنه سوف ينزل معهما لشراء أشياء لشخص آخر يعمل في الدور.

رامي رفض بشدة أن يستقل معه المصعد نفسه، حتى ولو لم يتلفَّظها صراحةً؛ حفاظًا على ماء وجهه أمام الفتاة الحسناء،

لكنه بدأ في التهكم على العامل ثم بدأت نبرته تعلو قليلًا ويجز على صدغيه في غضب وسط تساؤلات نهى عن سبب رفضه، فاكتفى هو بالصمت ثم بدأ فقرة التناوش بالإصبع مع الحاج فتحي. انتبهت هي للأمر وطلبت منه أن يتحلى بالهدوء وأن لا شيء يؤرقها مثل ما هو يفعل.

- حمدًا لله.

أخذت تلتقط أنفاسها بعدما انتصر الحظ لها، صعد معهما عم فتحي ضاغطًا زر المصعد دون النظر إلى أحد في ارتباك، أما عن الرجل ذي البدلة الكلاسيك فقد أخذ يتأفف حاملًا منديلًا ورقيًّا يسد به فمه، ونهى في غمرة اندهاشها ترفع شفتها في تعجب من أمره.

شعر الحاج فتحي بقشعريرة رامي منه.

- آسف يا بيه، هانزل الدور الجاي أكمل على السلالم.

- مثلما تريد.

رد المنمق بتوسل ونبرة منخفضة.

انتهز الرجل المسكين أول طابق للنزول وهو في خجل تام كأن أحدهم صفعه للتو، لقد احتك بعشرات في هذا المكان، لم يُثِر اشمئزاز أحد أو يدعوه بأنه غير نظيف حتى.

نهى بمعاتبة رامي على فعلته أخذ يتحجج بأن هؤلاء الناس من الطبقة المتدنية يمكن أن يصيبهم الفيروس ويستشري في أجسامهم بمنتهى السهولة، فهم لا يتبعون نظامًا غذائيًّا، ناهيك عن عدم حفاظهم على النظافة العامة والجهل أيضًا يثبت المشكلة أكثر، بالإضافة إلى عدم الالتزام بالتعليمات الطبية.

ثم أشار إلى الفراغ الذي كان يحوي جسم عم فتحي.

- أَلَمْ ترَيْ أنه لم يرتدِ كمامة من الأساس؟!

سخرت منه في ضحكة مقهقهة:

- ولا أنا ولا أنت يا مستر رامي! لا تنسَ أننا نُفحَص قبل الدخول من بوابة الشركة.

- نعم، ولكن الاحتياط واجب، وهذا الرجل منبع الفيروسات ولا يستحق كل هذا اللطف منك، ربما أنا من يستحق ولو قليلًا من تلك المعاملة.

ثم أخذ يدنو منها أكثر في نظرة متلاعبة بعدما أشاح ذاك المنديل عن وجهه ووضعه في جيبه مادًّا يده إلى إحدى خصلاتها الملتفة من جانب شعرها.

انتبهت نهى إلى ما يصبو إليه فانتفضت، ثم أخبرته بأنها لا تحب ما يفعله وبدأت تكشر عن أنيابها وتطلق من عينيها شرارات غضب، واصلت عتابه بشكل مباشر لما حدث مع عم فتحي، وأنه أهانه أمامها وهذا لا يجوز من رجل محترم وذي مكانه مثله.

صمت هو قليلًا، وعند خروجه ابتسم بلا مبالاة؛ كل ما يدور في عقله هو ما نطقه في بضع كلمات.

- سأراكِ قريبًا مرة أخرى.

نهى في سرها تتمتم:

- مستحيل!

بعد مرور أسبوع على هذا اللقاء غير المرغوب فيه ودون أثر لمستر رامي في الشركة، بعد أخذه إجازة طارئة وتكهنات جيجي إحدى رفيقات المستر المقربات بأنه ربما سافر إلى الساحل نظرًا إلى سخونة الجو.

لم تكن تلك المسكينة تدرك أن سبب غيابه هو كارثة مستقبلية ومفاجأة غير محسوب لها بالًا، تناقلت بعض الأقاويل أن الأستاذة نهى والحارس مريضان بفيروس كورونا، لذا الجميع يتجنب الاقتراب من نهى ويبتعدون في اشمئزاز من عم فتحي.

بدأت تتساءل بصوت مرتفع:

- ماذا يحدث في الشركة؟

أخبرها أحد زملائها بأن الجميع يعلم أنها مصابة وانتقلت كعدوى إليها من عم فتحي، نظرًا إلى احتكاك نهى يوميًّا بمصافحته والتحدث بالقرب منه حتى تطمئن عليه وعلى عائلته.

- ما هذا الهراء؟! من قال لكم تلك الإشاعة السخيفة؟

قالتها في هجومٍ بادٍ على ملامحها.

وضَّبَت أغراضها بانفعال وتركت العمل في حزن عظيم، لقد ساهم الكل في حديثهم عن مرضها وهي التي لم تلاحظ أيًّا من هذه الأعراض.

كيف؟ هذا لا يُعقَل!

حتى تصاب بهذا الفيروس لا بد من ارتفاع حرارتك، السعال مثلًا عليه أن يستمر، لا هي ولا الحاج فتحي ظهر عليهما مثل تلك العلامات.

وما زاد تلك المدة سوءًا أن جيرانها بدأوا يتفادونها، وكلٌّ من صاحب الكشك المقابل لعمارتها ومحال الشارع أجمع أوقفوا خدماتهم لشقة نهى وعائلتها، مُلقبِّين إياها بشقة الكورونا.

تركت الأمر لله فلم تهتم بالأحاديث واكتفت بالمكوث في بيتها حتى انتهاء الأزمة، وبعد أسبوعين من مدة حجرها المنزلي وعند حديثها عبر الهاتف مع صديقة قديمة، أخبرتها أن أستاذ رامي أصيب بكورونا أيضًا وحالته تتفاقم سوءًا، وقالت إنه اعترف إلى المدير بشكل مباشر بأنه هو من أطلق تلك الإشاعة، إذ وجدها طريقة مناسبة للفتك بكبرياء تلك الموظفة، قاصدًا

نهى، واستهزاءً بذلك الرجل الذي تساوى في مقامه حين صعد معه المصعد، وأبلغه بأن يسامحوه على فعلته هذه حتى ينجو من كربته.

وضعت نهى الهاتف جانبًا وهي فاتحة فمها تحدث نفسها متعجبة:

- هو من هاجمه الفيروس!

كل ما كان يسعد خاطرها ليس تبرئتها من هذا المرض بالطبع، هو ليس بتهمة، إذ كانت على دراية بأن الحقيقة ستظهر وأن تركها العمل سيعوضه الله، لكن أكثر ما جعلها ممتنة حقًّا هو استعادة كرامة عم فتحي أمام زملائها.

ثم عقدت حاجبيها في جدية.

- ربما الفيروس أرسله القدر حتى تسنح فرصة الانتقام لذلك اليوم الذي لا أود تذكره.

«غداً من الممكن أن ننتحر، الآن علينا أن نحب»

رياض الصالح الحسين

قتله الوهم

«قتله الوهم»، هذا ما أخبرنا به الأستاذ كريم نبيل صديق المجني عليه عند مثوله في الاستجواب الأول في منزل الضحية، حيث رائحة عفنة تعبئ المكان يتخللها سكون الأثاث الرابض في مكانه بمثالية فائقة، وتخطو أشعة الشمس على استحياء في مسارات من وراء غطاء النافذة باللون البني الغامق.

إنها حادثة فريدة من نوعها، هل مات منتحرًا أم مقتولًا؟! والمجرم لا يزال طليقًا، كل الأدلة تقول إن هناك خطبًا ما، كيف لشاب في الثلاثين من عمره على سيرة طيبة وفي منزلة اجتماعية جيدة أن يموت فجأة وبهذه الطريقة البشعة؟!

لم يعرف الرائد نادر الجرادي ماذا يسأله أكثر حتى توضح له الأمور، صديق طفولته لم يحتمل غياب الضحية فأجهش ببكائه ثم استطرد حديثه أمام التحقيقات:

- لم يكن له أعداء، فقط كان يتخيلهم. كنت أعلم أن ذلك اليوم آتٍ لا محالة، دومًا ما كنت قلقًا عليه؛ يعيش بمفرده منذ مدة طويلة، يتغذى على خوفه ويلجأ إلى وحدته، يمر بحالة نفسية سيئة نتيجة أمور متعلقة بعمله الأخير ومشاكل عائلية متوارية عن الأنظار، أعترف سيدي بأنني خسرت صديقًا ذا قلب الطيب.

سأله الرائد مندهشًا بعد معاينة باب الشقة:

- لا توجد آثار خدوش أو كسور، من معه مفتاح المنزل غير القتيل؟

- لا أعلم، لكن لم يأمن أحدًا، فقد كان حَذِرًا جدًّا ولا يحب الاختلاط.

رفع الرائد حاجبه في استنكار.

- ألم يكن على تواصل مع أهله؟

- بلى، كان على تواصل مع أخيه، يتردد عليه من وقت إلى آخر، لكن عند وقوع الجريمة كنت أنا أول الحاضرين.

- لقد ذكرتَ من قبل أنَّك جئت صدفة للاطمئنان عليه، صِفْ لي ما رأيت بالتفصيل.

- وجدته مستلقيًا على الأرض والحبل ملتف حول عنقه في غرفة النوم وقد فارق الحياة.

قالها بأسف وهو يمتعض شفتيه.

- هل رأيت تلك الكدمات ذات اللون الأزرق حول رقبته وعلى شفته في هذا التوقيت؟

أومأ كريم برأسه اتفاقًا مع حديث الجرادي، ثم استدار الأخير وأشار إلى رجاله المنتشرين حوله بأن يبحثوا عن عنوان الأخ لعلهم يجدون دوافع خفية لهذه الجريمة.

همَّ بمغادرة المكان بعد وضع علامات وأصدر تعليماته بعدم دخول أحدهم إلى الشقة، وعلى إثره نشر حارس العمارة الخبر وتداول الجيران مُلابَسات القضية، منهم من يعتقد أنها

جريمة قتل حدثت بالفعل وهناك شبهة جنائية، ومنهم من يؤكد أن الرجل انتحر خوفًا من ذلك الفيروس الفتاك.

حينها وفد أحدهم راكضًا نحو الجثة المغطاة والملقاة أرضًا، كان دامع العينين مشوش الرؤية، ذكَّره الحارس بأن الشقة مُحاطَة من قبل رجال الشرطة قبل التوغل فيها، فأخذ يصيح بصوتٍ عالٍ ويتأوه في أسى، مما أدى إلى لفت انتباه المحقق الذي اقترب منه بلطف.

- البقاء لله، أَتعرِف المجني عليه؟

الحارس في شغف:

- محمود أخو القتيل سيدي و...

رمقه الجرادي بنظرة مفادها: اصمتْ وإلَّا!

كان الرجل جاثيًا على ركبتيه يغطي بكلتا ذراعيه وجهه حتى يُخفى أثار حزنه البادي على ملامحه.

شكره ثم اعتدل مستعدًّا لحديثه:

- أخي لم يكره أحدًا ولم يكن له أعداء.

- ماذا حدث ذلك اليوم؟ هل تواصلت معه؟

- منذ أكثر من أسبوع لا يحدثنا، هاتفته وأخبرني بأن هناك شيء غير مألوف وأن أحدهم يحاول قتله، يسعل كثيرًا في أثناء حديثه، حركة تنفسه بطيئة، فطلبت منه الذهاب إلى طبيب لأن الظروف الصحية المحيطة تؤكد ظهور ذلك الفيروس بجنون، أردت الاطمئنان عليه، وبَّخَني حينها لأنه يمقتهم.

الجرادي يعبث في سجل هاتفه عن آخر المكالمات ثم بدأ التحريات، ونظرًا إلى حالة الوالدين النفسية اكتفى بشهادة الأخ واستكمل إحضار كل من حارس العقار واثنين من جيرانه، لكنه فوجئ بأن شهادتهم واحدة.

لا أحد يعلم أي شيء، فهو بجلس وحيدًا وينام وحيدًا ولا يخرج من شقته إلا وحيدًا، في تلك المدة كلها كان يعتمد على الحارس في تلبية احتياجاته ومشترياته المنزلية، وصَدَّق الحارس على هذه المواقف ثم استطرد بأنه يترك كل النقود المتبقية كبقشيش دون حديث منه أو انتظار لشكر، الرجل دائمًا كان متوترًا وخائفًا كأن أحدهم يلحق به.

تنهد الجرادي منهكًا:

- أمره عجيب هذا الرجل! مات وحيدًا دون أهل وأصدقاء، مَن يعيش هكذا؟!

«ولو أنه انتحر، فكيف يترك نفسه فريسة للوهم ولم يكترث لعقاب الله؟!» أخذ يرددها إلى نفسه حتى باغته اتصال من رقم غير معلوم ملحق برسالة نصية.

بضع من الكلمات أثار فضوله، مُدرَج أسفلها رقم هاتف وعنوان عيادة خاصة.

في حيرة تساءل ماذا يريد هذا الشخص منه، هل هو على علاقة بالمجني عليه، أم إنه يعرف أمرًا عن القضية على الأرجح؟

عند وصوله رحب به بحفاوة.

- أيمن الزهار، طبيب نفسي.

أومأ برأسه كنايةً عن ترحيبه الشديد.

- أعرف الحالة يا سيدي منذ وقت كبير، تقابلنا مرة، كنت صديق أخيه الأكبر، وقت الدراسة كان يبدو عليه ارتياب كبير

عند مقابلة أحدهم وكثيرًا ما كان يسخر أخوه منه قائلًا إنه يخشى الغرباء. لكن أنا وجدته مهووسًا، لديه خوف مرضيٌّ، أو بالأحرى وسواس قهري. أتذكر أنه كان يغسل يديه بعد مصافحتي أكثر من مرة، طلبت أن يتم الفحص في المشفى ولكن رفض بحجة أن العمل يأخذ وقته كله وليس هناك ما يستدعي القلق. هو حريص ومنظم فقط، والنظافة هي هاجس والدته أيضًا.

غمر المحقق الطبيب بالتحية وهو في طريقه يتساءل:

- هل هو مريض نفسي حقًّا، أم هي تكهنات طبيب في مقتبل العمر؟

الوضع معقد ورأس الجرادي كاد أن ينفجر فقرر أن ينتظر حتى يتم جمع النتائج المتعلقة بالحادثة من المعمل الجنائي أولًا، ولكن الفضول التهمه كعادة المحققين، إذ لا يهدأ لهم بالٌ إلا إذا عُثِر على حل العقدة.

تذكر تلك الكلمات كأنها مرت على أذنيه للتو.

صديق القتيل في أول التحقيق بعثر كثيرًا من الجمل في أثناء هذيانه وصدمته الأولى، قد تكون حلًّا لكل هذا الهراء.

قتله الوهم، يتخيل الموت!

حتمًا صديقه يعرف بداية المسألة برمتها، هناك أحداث مخفية عن ناظريه.

رن الهاتف طويلًا لكن دون جدوى، ثم أعاد الاتصال، هذه المرة بأخي القتيل حتى يستدرجه؛ دومًا ما شعر بعدم الارتياح إلى كلماته القليلة، على الرغم من مشاعره الفياضة على فقدان أخيه.

استرسل في الحديث معه موهِمًا إياه أن اتصاله بخصوص كريم، لكنه أخبره بأنه لم يقابله مؤخرًا. أصر المحقق على محادثته فأعطاه الرقم بعد إلحاح كبير، مما أسقط في نفْس الجرادي ذلك الشعور بالريبة أن شيئًا ما يركض محمود نحو إخفائه.

حمد الله كثيرًا على رد كريم، طلب مقابلته بعدها بنصف ساعة.

- يا سيدي أنا لا أعرف شيئًا أكثر مما قلت.

قالها كريم بحركة عصبية مفتعلة لاحظها نادر الضليع في هيئة الكاذبين وفي لغة الجسم أيضًا.

رد المحقق بصوت خفيض ونبرة ثابتة:

- اهدأ قليلًا.

وهو رافع حاجبه نافثًا لفافة من التبغ تصنع دوائر من الدخان حول كرسيه، فهذه كلمات محمود أيضًا.

ثم نظر في عينيه مباشرة، بدأ الآخر في الارتباك، تلتوي كل من ساقيه محتمية بالأخرى، يتشبث بذراعيه وملامحه يكسوها القلق.

- أنـــ... أنـــ... أنا سأخبرك بكل شيء، عصام منذ مدة كان يعمل في شركة اتصالات كبيرة، عنده بعض الهلاوس والمعتقدات أن زميلًا له في الشركة ينوي قتله، فبدأ في مهاجمته، أصبح هستيريًّا بعض الشيء، لكن لذكائه وعمله المنظم اكتفت الشركة بمد إجازته دون مرتب ولأطول مدة ممكنة، ثم حولته إلى طبيب نفسي فلم يستجِب هو، وتوالى

تكرار تلك النوبات حتى بداية أزمة كورونا، اكتأب أكثر، بخاصة أنه بلا عمل وعلاقته الأسرية غير مستقرة. كان يشكو من معاملتهم القاسية، يرونه مصرفًا تجاريًّا، وحين تضررت حالته المادية تركوه وحيدًا حتى أقدم على الانتحار أكثر من مرة. اتصل أخوه يخبرني بأن عصام يعزم على الانتحار، وأنه يُخيَّل إليه بأنه مصاب بذلك الفيروس وطلب مني أن أتحدث معه. بالفعل ذهبت إليه في شقته قبل ليلتين من ذلك اليوم المشئوم، حالته كانت مريبة، كان يشد على أصابعه عضًّا ثم ينظر إلى السقف العلوي، يحرك بؤبؤ عينيه بحركات دائرية سريعة ويغمضها ثم يعيد فتحها. لا أعلم ما يغريه بالأسقف لكني مشفق على عينيه الممتلئين بالأرق، وتحت كلتا جفنيه سواد عظيم. كان جالسًا في وضعية الجنين ويبكي بحرقة، يلتفت كثيرًا خلف أذنيه كأن أحدًا يهمس له، وهو يسترق النظر مشيرًا إليَّ: أتسمع؟ بلطف حتى لا أضايقه أجيبه: نعم. وأربت على يديه مقتربًا منه، فاعترف لي بأن أحدهم وضع شيئًا من ذلك الفيروس القاتل في عشائه الأخير. لم يحدد إذا كان حارس العمارة أم أحد والديه أم أخاه محمود، لم أعلم كيف أصدقه وهو في هذه الحالة، بدت كهلاوس، بخاصة أنه لم ينم

منذ مدة كبيرة، جسمه تملكه الضعف، لا يأكل بانتظام أو يأخذ أدويته.

انتفض الجرادي معقبًا:

- كل هذا يحدث ولا أحد هنا؟!

أجابه كريم بأنهم يتعاملون معه بحذر وهو يتجنبهم لأنهم ينعتونه بالجنون.

- ربما تصرفاته غير طبيعية، لكنه ليس مجنونًا. أخبرك سيدي حتى أجد متنفسًا، هي حادثة انتحار وأدعو الله أن يرحمه ويرفق به في الآخرة.

- مسكين هذا الشاب، عانى كثيرًا!

قالها المحقق في تحسر.

- وأخوه؟

تساءل.

- يعلم سيدي، نعم كل هذا، وهو من طلب أن لا أذكر عن الانتحار شيئًا، أرادها حادثة بفعل فاعل حتى إنه أخفى تلك الرسالة.

- ماذا؟! ما هي تلك الرسالة؟

- في يوم الجريمة، حين وصلت إلى الشقة ووجدته جثة هامدة أخبرت محمود في الحال فجاء، ثم ونحن نتناقش حول كيفية إخبار العائلة والآخرين بالأمر، طمس هو تلك الورقة بعيدًا، قرأها أمامي، كدت أن أسقط من الألم، عصام في الخطاب ينعى نفسَه ويُلقي باللوم علينا جميعًا. الدموع كانت متحجرةً في عيني ولم أقوَ على سماع كلمات أكثر، وهذا دليل كافٍ أعلم.

- اكتب هنا أُغلِقَت القضية ولا توجد أي شبهات جنائية، لقد حاول المجني عليه الانتحار، وقد تمَّ بعلم من عائلته وصديقه دون مساعدة المنتحر.

«لا يوجد وهم يبدو كأنه حقيقة مثل الحب، ولا حقيقة نتعامل معها كأنها الوهم مثل الموت»

مصطفى محمود

حبيب معزول

شاع الخبر في المنزل، الدموع كسيل جارف تنهمر من عائلة بأكملها، لم يصدق أحدهم ذلك الأمر، كيف لتلك الجميلة التي لم تُكمِل عامها الحادي والعشرين أن ينتزعها ذلك الوباء؟! كيف تقع صريعة المرض وهي في رونق الشباب بين ليلة وضحاها؟!

«يشاء الله أمورًا مفاجئةً لنا، لكننا مُلزَمون بتقبل أقدارنا حتى وإن وجدنا ما لا يرضينا».

- أبي لا تحزن، قد يتطلب الأمر الذهاب إلى المشفى.

تحاول الفتاة تخفيف الصدمة، بينما الأم معلنة بصرخات حادة، إذ قد فاق الأمر سيطرتها كليًّا.

بنبرة مقهورة قالت:

- لن تبتعدي عن حضني يا صغيرتي!

ناقشهم الأب في لين والألم يعتصره:

- أعلم أن فراقكِ محطم، لكن ما سيقتلنا لا قدر الله، بل هو غيابك إلى الأبد، اذهبي ونحن لن نخذلك.

بدت فزعة كثيرًا ذلك اليوم وهي التي لا تغادر الابتسامة وجهها، حاملة آلتها الموسيقية في يديها والفكر والشرود يخيمان على ملامحها.

- ماذا بك ياسمين؟

نطقها يوسف في توتر واضح.

مسحت بعض دموعها السابحة على وجنتيها في رقة ثم حاولت تهدئة نفسها، كانت تقاوم ضعفها حتى تتظاهر بالقوة وتخبره بأن نتيجة التحليل إيجابية وأنها تحمل الفيروس.

لم يدرك يوسف ما سمعه للتو، أثار حديثها هلعه كأنه حلم يريده أن ينتهي، وقع الجملة عليه كان كفيلًا بأن يُغرِقه في

الحزن سنوات عديدة، لكنه تماسك أمامها وأجهش بالبكاء في الخفاء، لذلك اليوم تأثير قاتل على نفوسهم.

مَن كان يعلم ما يخفيه القدر؟!

من كان يدري أن بعد موافقة أهلهم على علاقتهم العاطفية وتعيين موعد خاص لخطبتهم وسط العائلة أن يعلن المرض كلمته الأولى في بداية قصتهما؟!

أخذ يطمئنها مربتًا على يديها في عطف:

- ستصبحين بخير حبيبتي، لا تقلقي، سأفعل ما بوسعي حتى تعودي ياسمين التي اعتدت عليها، ياسمين التي حين تبتسم ينبت الفرح أمام ثغرها.

حديث يوسف جعلها تصمد قليلًا لأنها أول المحنة ولا يزال للألم بقية.

وبالفعل جلبت أشياءها الصغيرة وحزمت حقيبتها مستعدة للذهاب إلى مستشفى العزل، وفي أول الصباح بين رائحة العقاقير الطبية تستلقي هي على سريرها، فتحت عينها في تحايل.

دون يوسف اليوم مرهق وكئيب، كأنه جدران الحجرة تشيخ وكل أثاثها يذبل.

تكالبت الأوجاع عليها، وبين كم هائل من التحايل والأشعة المطلوبة لا يزال السعال يداهم حلقها وتستسلم هي بالنوم طوال اليوم هربًا منه، حتى هاتفها إشعاراته لم تهدأ فينة، فالجميع يريد الاطمئنان، فما بين اتصالات ودعوات تقضي ياسمين روتينها اليومي.

كادت أن تُهزَم في أول الطريق لكن يوسف يساندها، في كل مرة يذهب واقفًا تحت نافذتها، هي تحت تأثير المرض وهو تحت تأثير عينيها، يراها عن كثب ويثرثر كثيرًا هو وفرقته الموسيقية عبر الإنترنت، تشاركه صورتها ثم تلوح له في شوق.

كانت القشعريرة تسري في جسمها لكن الدفء يستوطن قلبها.

الحب ينقذنا من لحظات الألم، يسري كالمخدر في عروقنا، قصير الأمد نعم لكنه ذو مذاق شهي.

حمَّسها يوسف بأنها كلما تعافت أكثر سيحضر لها مفاجأة جديدة.

تركت لوحها الإلكتروني وهي مغمورة بالسعادة والشغف تجاه اهتمام يوسف وحنوه، حينها قرع أحدهم الباب في هدوء، كان طبيبها الذي أخذ يطمئنها بأن حالتها -حمدًا لله- في بدايتها، مُقدَّر لها أسبوعان حتى تعود كليًّا من ثم ترى العالم مرة أخرى، ولكن في تلك المدة عليها التعامل كما لو أنها مصابة، ثم استطرد في حديثه:

- هنا نتعامل على أساس أننا جميعًا مصابون.

وابتسم ابتسامة ذات مغزى لم تَعِها ياسمين في تلك اللحظة.

انتهزت هي هذا الخبر وهاتفت يوسف، وسرعان ما تعالت نغمات هاتفه بصدى تألفه في غرفتها، اندهشت للأمر، كيف له أن يكون هنا؟!

تسترق النظر وتجول في أركان الحجرة، لم تجد أي أثر، وعلى بغتة منها وهي واقفه ممسكة بهاتفها هرولت إلى الشرفة حيث وجدت يوسف منثورًا حوله فرقتهما الموسيقية، شرع في

العزف هائمًا بين عينيها تاركًا أوتار الكمان تنصهر بعذوبة مع صوته الشجي مدندنًا أنغام أغنيتهما المفضلة لفيروز.

وعند انتهاء تلك الوصلة المميزة، بدأ عرضه الأجمل، جثا على ركبته ثم ظهر كثير من الأشخاص على شكل هالة بشرية محاطة بحب كبير منهم، كانت عائلتها وفرقتهما الموسيقية وعديد من الأطباء والممرضات.

بلالين أرجوانية، لون ياسمين المفضل، تعج بالمكان وتتكثف في السماء محلقة نحو شرفتها ومُدرَج عليها حروف مرتبة باللغة الإنجليزية.

«هل تتزوجينني؟»

«Would you marry me?»

مزيج من الفرح والحزن، عيناها الواسعتان تضويان وقلبها يخفق بشدة، فهي التي انتظرت تلك اللحظة منذ خمس سنوات، الآن ينتزع منها الفيروس ذلك الشعور، صرخات وهتافات من الجميع طالبين الموافقة على العرض.

أشارت هي بالدخول عبر بوابة المستشفى الرئيسية، رد بإيماءة نافية برأسه:

- ممنوع!

أثارت تلك الرومانسية الشوق في قلب ياسمين، ودت لو ارتمت في حضنه، ودت لو أخبرته عن أوجاع روحها وعن كيف أن فتاته الصغيرة تكافح من أجلهم.

قالت له بصوتٍ عالٍ:

- موافقة!

رد وهو يتقافز فرحًا:

- أحبك ياسمينتي!

كادت أن تكون تلك الأحرف ترياقها من العلة، لكنها توارت عن ناظريه خجلًا، وفي ذروة شعورها راسلته بكلمة واحدة فقط: أحبك!

قد تبزغ لك الصدمات شمسًا وسط عتمتك، لن تدرك مدى نورها الشاسع في قلبك، لكن حين تُظلِّلك الأيام حزنًا ستعرف مداها.

يوسف كان منيرًا جدًّا، هو حقيقي مُحِب دون أنانية أو خذلان، دومًا ما عافر طويلًا حتى تمنحه قلبها، لذا كل ما تتمنى في تلك اللحظة، حتى لو كانت الأخيرة بينهما، هو أن يجمعها الله به وإن فاق الحلم طاقات القدر.

«لا أحد يستحق أن تتوجع أمامه، ولا أحد سوف يُقاسمك ما تعانيه، فالألم شخصي، كما أن المرض شخصي والموت أيضًا»

أنيس منصور

غرفة 108

في الردهة الخاوية، الجدران متهادية والستائر منسدلة.

في حقيقة الأمر، لا يسلم المكان سوى من بعض الظلال المتحركة لطاقم التمريض حول جنبات الممر، يبذلون كل الجهد في خدمة المرضى، فلا زمن، عليهم ذلك تعاطفًا مع من أثقلهم الألم.

تمكث وحيدة منكسرة والبرودة تستجديها، فتلفَّحت بثقل الصوف، أخذت تحكم معطفها جيدًا في منتصف الشتاء، لكن حرارتها تصل إلى حد الغليان، كالعادة تجلس على طرف سريرها دون أن تزحزح بصرها، في تشتت بين أرجاء الغرفة الضيقة.

- صباح الخير، كيف حالك اليوم؟

قالتها الطبيبة روان ذات الوجه البشوش والعمل الدؤوب.

اكتفت السيدة بإيماءة من رأسها.

- لا تقلقي، حالتك لا تتشابه مع المريض رقم 109.

قالتها الطبيبة بعد أن فطنت إلى أن الخبر تسرب إليها.

- أعلم أنه توفي أمس.

ردت السيدة بشكل لافت.

- وهل أنت حزينة لذلك الأمر؟

خافت روان أن تستشعر كذبها في محاولة منها أن تستجدي عطفها.

- ولمَ الحزن يا ابنتي؟! فأنا أيضًا سألحق به.

قالتها السيدة باستهانة وخضوع شديد.

ناظرة إلى عينيها بحسرة بالغة، في هذه الأيام لا يؤرق روان إلا تلك السيدة، تسعى إلى التفريج عنها. تُذكِّرها بوالدتها، ربما

لأنها تحمل ملامحها، تشبهها حتى في حزنها وقلقها. لم ترَها طوال شهرين ماضيين، تود سماع صوتها الآن، تود لو ترى محياها ولو لحظة.

لكن السيدة متزامنة بقوة مع الفيروس، وحتمًا سيستغرق الشفاء مدة طويلة.

اقتربت يديها من سطح المنضدة نازحة نحو الريموت، استنبطت السيدة أنها ستشغل التلفاز حتى يضفي بهجة ومزيدًا من الألوان إلى فؤادها الذي بهت لونه.

زفرت بعمق ثم رفعت عينيها المتعبتين وهي شاردة في انتظار القنوات المتخمة بالأخبار والحكايات المسردة على هيئة مسلسلات، لكن لم تكن بجودة حكايتها بعد.

سنحت أمام روان الفرصة حتى تناولها جرعاتها اليومية من الدواء.

في تأثُّر بالغ وعلى مسافة آمنة قالت لها:

- أعدكِ بأنك ستتحسنين.

شعرت السيدة بعطف بالغ.

الدمع يهطل بغزارة كأنها تترقب من يدغدغ مشاعر الأمومة داخلها، فغفا الحزن في عينيها ونبت مكانه امتنان ورضا.

لا أحد يعرف سر صمتها المُطبِق، الجميع على علم أنها في مرحلة متأخرة نعم، لكن مَن في المشفى كلهم يُحرِزون تقدمًا، يتكاتفون جنبًا إلى جنب في سبيل الشفاء. أما تلك السيدة فظروفها غريبة بعض الشيء، مما أثار فضول روان أكثر إلى أن تكشف السر.

وفي وسط الثرثرة الليلة مع مساعدتها مريم، فهي من تختص بأصل الحكايات في المشفى، أخبرتها أن أستاذة كريمة سيدة فاضلة ومربية أجيال، المرض هو ما أضعفها وجعلها كجسد الموتى، ثم أفصحت بأن من كسرها أكثر هُمْ أولادها.

علمت الطبيبة روان أن السيدة لديها خمسة أبناء، الأكبر حازم مهندس ميكانيكا وهو متزوج، ولديها نشوى معلمة ومتزوجة أيضًا، وسارة تدرس في السنة الأولى آداب اجتماع، وأحمد وملك في سنٍّ متقاربة وكلاهما في الشهادات الثانوية.

«ما هذا؟! أَلَمْ يجد كل هؤلاء وقتًا ولو ضئيلًا؟! جميعهم أضحوا غرباء؟!» محدثة نفسها في انفعال.

استنشقت بعض الهواء ثم ركزت في عملها تلك المدة الحرجة، فأي شرود ذهن لا يستحب، لذا انتقلت إلى مكتبها مع فريقها الطبي وأصبحت تطمئن عليها من وقت إلى آخر.

أوشك أسبوع السيدة الرابع على الانتهاء، بدأت نوبات المرض تزداد سوءًا، لم تحتمل كل هذا الصمت، انفجرت كبركان ثائر.

في هذا اليوم سمعتها روان وهي تبكي بحرقة، دلفت من الباب سريعًا.

- ما بك؟ ما بك؟ أنا مثل ابنتك.

فدنت منها ببعض الخطوات:

- شاركيني أحزانك.

تمسح دموعها وهي تنفث.

- أستغفر الله العظيم!

قالتها بطمأنينة.

- هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

أخذت ترددها مرات عديدة دون توقف.

عجيب أمر هذه السيدة، لا تقول سوى كلمات تذكر بها الله، كأنها تناست عمدًا بقية الكلمات، أو أنها تعمدت أن تذكره حتى لا ينساها هو.

أرادت روان أن تترك لها مساحتها الخاصة بعدما ناولتها مناديل ورقية وكوبًا من الماء حتى تستريح، فغفت هي. وفي اليوم التالي اشتدت الحرارة بشكل كبير، استدعت مريم الطبيبة.

- الحالة 108 في حمى شديدة.

ارتدت ملابسها الوقائية وماسك الوجه الطبي وهرعت، لكن قبل فتحها الباب بلحظات نشب شجار سمعته جيدًا، كاد أن يخترق أذنها، الصوت قادم من غرفة أستاذة كريمة، ما أجادت تفسيره وسط همهمات وحشرجة صوتها.

- صرتُ عبئًا عليك الآن يا حازم! لم يخطر على بالي ولو مرة أن هذا سيحدث!

وبصوت مهتز ومرارة بالغة تتساءل:

- أإخوَتُك موافقون؟

فجأة سمعت شهيقًا عاليًا وصوت ارتطام، لم تحتمل روان الموقف أكثر، فطلبت من مساعدتها الدخول، وجدت السيدة مغشيًّا عليها أرضًا.

يحاولان جذب وعيَ السيدة دون جدوى، لم تكترث روان لشيءٍ سوى لوجه السيدة، كل ما قدرت على فعله التقاط ذلك الهاتف من يدها، الخط لم يُغلَق بعد، لا يزال متاحًا، وضعته على أذنها فضولًا.

ماذا حدث؟ ما الذي سمعته تلك السيدة حتى تغفو في سبات عميق وغيبوبة مفرطة هكذا؟

- أنا وإخوتي مشغولون، لن نقدر على زيارتك على كل حال.

وفي منتصف تلك الكلمات، صرخت مريم بصوت مكتوم:

- دكتورة، الحالة تزداد سوءًا!

ألقت روان الهاتف بعيدًا ثم استدارت مسرعة نحو أنبوبة الأكسجين، تحاول أن تساعدها على شهيق وزفير جديد.

لم يسعفها القدر، لقد كتب الله لكل آجل مسمى.

ثم ألقت بكل أدواتها الطبية ونظرت في عين مساعدتها، كأنهما تلومان أنفسهما على ما حدث، لكن مشيئة الله فوق كل اعتبار.

همَّت المساعدة باستكمال الإجراءات وإخبار الطاقم الطبي بحالة الوفاة، وفي انفعال هادر وأسنانها تصطك غضبًا هاتفت الطبيبة آخر رقم مدون في سجل هاتف السيدة.

- أنا روان، الطبيبة المتابعة من حجرة الحالة 108، لقد توفيت الآن.

توقعت صراخًا يصم أذنها، لكن كل توقعاتها خاب أملها، أصداء المكالمة في وتيرة باردة يخبرها الطرف الآخر بأنهم لن يستلموا جثة السيدة، والسبب أن المرض مُعدٍ!

بكت هي في حرقة، أرادت أن تنهي المحادثة، ومن ثم تذكرت الطيبة على وجهها السمح الذي قدر الله لها المرض سببًا، ربما ليغفر لها ما تقدم من ذنبها.

- حسبي الله ونعم الوكيل!

رددتها الطبيبة بفؤاد يعتصره الحزن ثم أردفت:

- هكذا أرادت أن تقول السيدة كريمة قبل وفاتها.

«ليس أمامنا سوى الصبر الجميل
حتى ينطوي دهر الفراق ويتصل حبل
اللقاء»

نجيب محفوظ

إلى الأبد

ظلت متشبثة بيده، هو يرتجف وهي خطواتها مثقلة حتى افترقا على باب المشفى، لا تعلم إلى أين تذهب دونه، كل ما يجول في خاطرها أن عيد ميلاده قد اقترب. أرادت صنع مفاجأة تليق بمكانة هذا اليوم في قلبها، لكنها أُغشيَ عليها من التعب.

عقارب الساعة تتجه نحو الثامنة صباحًا، أفاقت في هذا الوقت بعد مدة من الإغماء، وما زالت في حيرة تتساءل عنه.

ذكَّرها الطبيب مازن بلطف بأنها هاجمتها غيبوبة سكر عنيدة، وتطلب الأمر أن ترقد في العناية المركزة وأنها لا تزال متعبة. توجد بعض التحاليل والأشعة التي لا بد منها، ووسط

انغماس الطبيب في إبداء هذه التعليمات، تفانت هي في سؤالها عن زوجها الحبيب.

أخبرها بعد إلحاح كبير أنه في الطابق العلوي وسيجري اللازم لحالته.

- لا ترهقي نفسك أرجوك، فإن عضلات جسمك لا تحتمل.

قالها الطبيب متمنيًا أن تنفذ التعليمات، لكن هيهات لها، فهي كطفلة في العاشرة من عمرها حين يتعلق الأمر به.

عقدت حاجبيها في قلق.

- ما هي حالته؟ أريد الاطمئنان.

يسير ببطء في أرجاء الغرفة وعلى مهل رفع ستائرها التي تحدها من كل تجاه، أملًا في أن تهدأ الشمس من روعها وتدفئ قلبها، ثم قال في تفاؤل مصطنع:

- دعينا نلتقط أنفاسنا أولًا وسأخبرك لاحقًا بكل شيء.

تركها مازن عمدًا ليسرع في تنفيذ مهمته وحتى لا تفزع من الأمر، فلا أحد غيره يعلم تشخيص حالتها هي وزوجها، لقد

استجابا للفيروس بشكل لافت، ربما يلتهم الذين تخطوا الستين أو مَن هُم في كومة أمراض مزمنة تفترش جناحًا كاملًا داخل أجسامهم.

اكتفى بالصمت وانفجرت على شفتيه ابتسامة مودعًا بها السيدة القلقة ثم سار نحو الباب.

الطبيب يتسلق الدرج المؤدي إلى غرفة الزوج، يجر الفضول قدميه، أراد أن يرى مَن هو ذلك الرجل التي تُكِنُّ له تلك السيدة كل هذا الحب، مَن هو الذي وجد لأجله في عينيها قلقًا وخوفًا.

شرع في الدخول وهو ممسكًا بدفتر ملاحظاته ثم أبلغته الممرضة بأنه لا يُفضَّل الحديث معه بعد جلسة الغسيل الكلوي المرهقة تلك، فاكتفى بقراءة تشخيص الحالة.

فزع السيدة في محله، توجد أعراض فتاكة ناتجة عن إصابته بفيروس كوفيد-19، والرجل في المقام الأول مريض زهايمر قد تخطى السبعين ربما، ناهيك أن السكر والضغط غير منتظمين

وبحاجة إلى جهاز تنفس اصطناعي، غير أنه تورط أيضًا في غسيل الدم.

أشفق كثيرًا عليه، ربما عليه خطورة أكثر من زوجته، لكن الوباء لا يكترث لمن الخطورة أشد عليه، فهو يلتهم من يريده في أي وقت.

يمصمص شفتيه في حنق وهو عاقد ساعديه أمام صدره، الحسرة تملأ عينيه، كل ما كان يشغل تفكيره هو كيف يساعد في شفائه من أجل تلك السيدة التي تتكبد عناءه.

لم تجمعه بهما أي صلة قرابة أو معرفة سابقة، لكن شعر بأن الموت والحب في قصتهما على وشك الالتقاء، حبيبته في الخارج تنتظره أيضًا على أمل اللقاء، أراد للحب أن ينتصر، بين طيات القصة أُلفَة وود دام لسنوات حتى جاء المرض بكل بساطة كي يقتنص روحيهما.

انتشل هاتفه من جيبه وأطفأ ذلك المنبه الثرثار الذي يذكره دائمًا بنوبات زيارات الحالات الطارئة.

مهلًا، لم يكن التذكير عن العمل، كانت هناك مفاجأة من نوع خاص.

عيد ميلاد زوجته اليوم! هل هي الصدفة أم إنه أمر مقدر؟!

هاتفها سريعًا في ود لا ينضب، فهو الذي أحبها منذ سنوات دراستهما الأولى، وكُلِّل ذلك الحب بزواج وصغير يشتاق إلى ضمه. أخذ يطمئنها عليه ويسرد لها بضعًا من أحداث يومه في عجالة.

في لحظة دراماتيكية انقلبت فيها كل الموازين، مساعدة الطبيب تحوم في المكان بعدما أخبرت الطبيب شيئًا أثار الفزع على ملامحه، تهيأ بجسمه ثم أغلق هاتفه وقفز إلى حجرة الزوج، بدأ يساعده على التنفس عبر أجهزة صناعية، ولكن لم يُجدِ ذلك نفعًا، فكثَّف الصعقات الكهربائية أعلى صدره، لكنه رحل سريعًا حتى لم يحادثه ولم يكتشف إذا كان يحبها مثلما تفعل هي أم لا.

كل ما صادفه ذكريات متعلق بها قبل رحيله بلحظات، صورة له مع زوجته يعتصرها براحة يده مكتوب فيها بعض من الكلمات:

«كل عام وأنتِ حبيبتي بخير، أدعو الله أن أخرج من هنا حتى نعود معًا، يوم ميلادك أجمل أيامي يا ثريا».

أخذ مازن يمسك رأسه بكلتا راحتيه في شفقة ملموسة.

يا الله! كيف هو ذلك الرجل؟

كيف سيخبرها؟

هل سيقول: زوجك الذي دام لك لأكثر من ثلاثين عامًا تركِكِ الآن؟!

الفراق صعب علينا جميعًا، مَن رحل ومَن بقي ومَن يضعه القدر أمام تلك المسألة.

في غمار هذا الأمر، قرر مازن أن تسير الحكاية كما أراد الله لها دون أي تدخل منه.

ذهب بدوره وهو يضع سيناريو أخف وطأة من المواجهة، قرر أن يبلغها بهدوء وهما يسيران في حديقة المشفى ثم يلقنها الأمر رويدًا رويدًا، لكن هي كانت في استعجال من أمرها، إذ لم تستمر حياتها بعدما أحاط الموت مَن كان بمثابة روحها.

لم تكد الدقيقة تمر، مازن وقف متسمرًا، الممرضة تغطي وجهها وتتمتم بكثير من الدعوات.

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

صدح بها الطبيب بعدما استند بجسمه إلى الحائط في ذهول.

«ولما قالوا دي بنية

قلت الحبيبة جاية»

مقطع شعبي من التراث

بشارة أمل

«أكتب لكِ عزيزتي رسالتي هذه وأنا أحدق في ملامحك المُنَمْنَمَة والألم ينهل من أضلعي، أتأمل عِظَةَ الله، كيف للخالق أن يُخرِج الحي من الميت سبحانه!

تستحقين الحياة بمحياك الندي، ولا بد لوجهي الذي اخترقه الخوف وزلزل ملامحه المرض أن يرحل.

يا لهذا الوجه الملائكي! أجدكِ تبتسمين لي فيستشري في جسمي كثير من الصبر، أتناسى الألم حين أتنزه بين تفاصيلك، أجمع بعضًا من الذكريات حتى تعينني على تبديد ما أنهكه الوباء.

أشكو إليكِ حبيبتي، خارت قواي، ضعفت وهشمني ذلك اللعين ما بين أنابيب تنفس وعقاقير متناوبة على إهماد جسمي كجثة متحركة، كل يوم أرجو الشفاء، أريده من أجلكِ أنت.

لن أقوى على ذلك وأنا أحملك داخلي، ولن أرضي أن أؤذيك بُنيَّتي، لذا سأرحل أنا حتى تعيشي بسلام.

آهٍ لو تعلمين كم تكبدت عناء تلك اللحظة، عشرة أعوام انتظرتك فيها بين تحاليل وأنابيب زرع الأجنة، كم رضيت بكلمات الهوان.

قبل رحيلي صغيرتي، سأسميك أمل، فأنت البشارة من الله، وعلى أمل أن نلتقي يومًا ما حتى أضمكِ إلى صدري.

أتحسس ملمس يديك الصغيرتين، سنلتقي في مكان يليق باخضرار روحك ونقاء قلبك.

أما الآن، أستودعكِ الله الذي لا تضيع ودائعه، فلم يبقَ لي إلى سويعات قليلة حتى ينطفئ نوري ويُضاء ثغرك البسام وتشرق عينك ذات اللون البني ويغرب بعدها سواد يأسي.

على يقين أنَّ الله سيلطف بحالي، وما كان عند ربي خير وأبقى.

ستكونين شخصًا مهمًّا في المستقبل، سيدعون لي إذ أنجبتُ فتاةً مثلك، سيتذكرني الناس بك يا فتاتي.

أنا أمكِ وصلة رحمك، جئتِ إليَّ بشرى ورحمة من العالمين.

اليوم أودعك وأقول لكِ سلامًا حتى نلتقي.

الأم التي تحبك.. إيمان».

أزاحت القلم بعيدًا وحملت أمل في وهن ثم وضعتها بجانب صدرها، قبَّلتها للمرة الأخيرة ورسالتها متشبثة بين أصابع الصغيرة المنمنمة. داهم المرض أصابعها المرتعشة، سقطت الرسالة أرضًا وسقطت معها إيمان في غيبوبة كاملة. التف حولها الأطباء آملين من الله إنقاذ الأم وإنعاشها بأنابيب الأكسجين، داعين الله بأن تنعم الرضيعة بقسطٍ من الراحة ولا ينال من جسمها الصغير أيُّ مرض.

في قلق تام يتنقل الأطباء بين الأم والطفلة، لم يتداركوا الأمر بعد، من عليهم إنقاذه.

للأسف تملك الفيروس من الأم وهي في شهور حملها الأخيرة، وكل محاولات إعادتها إلى الحياة لم تفلح أمام قهر ذلك اللعين.

- اللهم لا اعتراض، لله ما أخذ ولله ما أعطى.

قالها الزوج في رضا وحزن وهو حامل رضيعته بيده، والأخرى يذرف دموعه على رسالة زوجته.

رحلت الأم ولكن بقيت البشارة.

«الطب مهنة غريبة وتقترب من السحر، ولكنها بالغة القِدَم وتتعامل على الأقل مع أسرار الحياة والموت»

محمد المنسي قنديل

يوميات طبيب وكمامة

السبت، 28 مارس، 2020

أعرفكم بنفسي، أنا حازم أمين، طبيب من فريق أطباء العزل الصحي في أحد مستشفيات الحجر بالصعيد.

وهذه مذكراتي، يوم من أصعب الأيام ووقت يعد من أهم وأثقل الأوقات في حياتي.

هنا يكون الألم نفسيًّا وجسديًّا، نحتضر مع مرضانا الذين يرحلون ويشوبنا القلق على المتعافين منهم، بين مشاعر مقيتة وجدران صامتة وصرخات عالية يتخللها الألم في زوايا المكان، بين وجوه يتلاعب بها الأرق جيدا كأوراق يانصيب خاسرة، وأجسام خارت قواها وأعين منكمشة خوفًا.

ربما يذكرني البعض بأنه واجبي فأنا طبيب ويحتم عليَّ شرف مهنتي ذلك، علاوة عن الحديث عن الجيش الأبيض الذي يرفع البلاء. نعم أعلم كل هذا جيدًا، لكن أنا بشر أيضًا، فمن يختار الوحدة ويترك الأنس بين أحضان أسرته الدافئة؟! من سيختار الخوف وهو مُجبَر على أن يعيش لحظات مريبة كل ليلة؟!

وبمناسبة ليالي كورونا، سأخبركم كيف يمر نهاري وليلي بالطبع في هذا العزل.

أستيقظ كل صباح باكرًا ثم أفطر، ويفي بالغرض في تلك المسألة كوب من الشاي دون حليب وقطعة خبز إفرنجي عليه مسحة من الجبنة البيضاء، ثم أرتدي بدلة الإنقاذ، أسميها هكذا لأنها تحجب عن أجسامنا التي أعيتها رائحة المرض كثيرًا من الفيروسات في الجو، وأكمل بقية التعقيم الخاص به من ارتداء القفازات وختمها بالكمامة. وهنا جميعكم سيتخيل أنها تلك الكمامة المنتشرة بيننا في هذا الوقت ذات الأشرطة الزرقاء الطبية التي تغطي الأنف، نعم أصبتم، لكن لا أرتديها وحدها، فكل طبيب هنا عليه ارتداء اثنين على الأقل حتى يحد من انتشار الفيروسات حوله، ما يحجم معها قدرتك على

التنفس الطبيعي. ما عليك بتلك العلامات على وجهي، فهي من أثر الكمامة الأولى، إذ ضغطت عليها الأخريات فأصبحت كملابس ضيقة على جسد مترهل.

الأحد، 29 مارس، 2020

ملتف أمام مجموعة من الاستشاريين الذين خاطروا بالقدوم إلينا لمد يد العون وتكثيف دراستنا الطبية على الفيروس وكيفية التعامل مع الأعراض، أحمل أغراضي جميعها من أجهزة قياس السكر والضغط ودرجة الحرارة ومن ثم أطوف في زياراتي للمرضى أنا وبقية الفريق الطبي، إذ إننا 18 طبيبًا وطيبة و30 ممرضة.

الاثنين، 30 مارس، 2020

الغرفة الأولى:

أعرفكم بلُؤي، لديه 10 سنوات لكن ثباته وقدرة تحمله تخطت هذا الرقم، يمكث هنا منذ ما يقارب الأسبوعين، حالته تحسنت وهذا ما يعطي أملًا جديدًا، كل يوم أبدأ به، بخاصة وأنا عضو في فريق الدعم النفسي حتى أزيل الكآبة عن أرواحنا،

نضحك ونثرثر ونرسم معًا ثم تنشأ مكالمة جماعية مع أصدقائه للاطمئنان عليه، وهناك أيضًا اليوم الترفيهي، إذ نأخذ مجموعة من الأطباء والممرضات ونتجول في غرف الأطفال مهللين فرحين نغني لهم.

الثلاثاء، 31 مارس، 2020

معمل التحاليل، وجدت نفسي داخله بأمر من رئيس المشفى حتى يأخذوا عينة لعمل تحليل «PCR»، ثم دلفت إلى الغرفة الثانية.

أعرفكم بجيمس، أمريكي الجنسية مصري المزاح، كان يقيم في أحد الفنادق السياحية، وبالطبع لم أحتَجْ إلى مترجم خاص إذ إنني جيد إلى حد ما في الإنجليزية ذات اللهجة الأمريكية، منذ آخر سفر إلى هناك، إذ اجتزت درجة الماجستير ببراعة.

آه نسيت أن أخبركم، إنه ذو صوت عظيم، هو من يهون علينا لحظات الحزن الفارقة بقليل، يذكرني بمُغنٍّ قديم أمريكي، أظنه إلفيس بريسلي، مع دندنة الجيتار طوال اليوم، هو أيضًا أكاد أن أجده يتحسن وأدعو الله في ذلك، لقد تلقى إصابته في

بلده ونقلها إلينا، من الممكن أن القدر أراد ذلك حتى نستمع إلى صوته الشجي. الغريب في الأمر، أن جيمس ولؤي كان الفرح يعتلي وجهيهما، لم يتذمرا مثل بقية المصريين في خلال تلك الجائحة، بل كانا يبثان الأمل في الراقدين تحت أنياب كوفيد والذين حطم المرض عظامهم.

انتهت أحداث اليوم وانتهت معها مشاعري وقواي الجسدية.

أنا لا أشكو مطلقًا لكنني أبوح إليكم بما فاضت به نفسي، داعيًا الله أن يشفي مرضانا ويخفف عنا هذا الحمل الثقيل.

الموت والحياة مترادفان لا متضادان،
فلا موت إلا ويتبعه حياة ولا حياة إلا
ويختمها موت.

سعاد شاهين الكاشف

كتابة تحت تأثير كورونا

7 أيام

اليوم الأول:

تتناثر الأوجاع بين ثكلى وضحايا رصاصات الألم، ستعرف وجوههم جيدًا، منهم أفراد عائلتك أو أصدقائك، كل ما يحاصرك بائس، يغمره كثير من الوحدة والكآبة.

اليوم الثاني:

تساؤلات كثيرة تُطرَح حول الموت، لكن هناك من ينجو منه بأعجوبة أيضًا. لدى الجميع هلاوسُ تنسج خيطًا متينًا حوله، يريدون التخلص منه ولا ينفك هو عن الإمساك بهم.

اليوم الثالث:

نتوَهَّم الحياة ونحن على أطراف الرحيل والأمل يختلج خوافقنا، لكن عند لحظة وليدة الألم نجد الحقيقة جلية.

اليوم الرابع:

أُوقِظ القلب على ذكريات من الفراق، على أحباب كانوا وصايا على الروح اختارهم المرض حتى يرقدوا معه دون اعتبار لما سيحدث بنا.

اليوم الخامس:

ستشعرون بكل لهثات أنفاسهم، بالخوف الذي اعتراهم وكل المرض الذي تملك من أجسامهم.

اليوم السادس:

تعتصرك الأحزان حتى تقابل الخوف فيقودك نحو الهلاك.

اليوم السابع:

اغتالهم الموت من بين أيدينا عنوة إلى الأبد.

خاتمة

من أغرب الأماكن سجلنا بثًّا مباشرًا، وهناك قابلنا المريض رقم صفر، ووجدنا مَن مرض زوجها بكورونا، حينها أمهلناهم خمس دقائق حتى يحصلوا على بشارة أمل أو فراقٍ إلى الأبد، ثم طلبنا مساعدة الطبيب مع الكمامة حتى نتغلب على السيد كوفيد في غرفة 108، غرفة السيدة التي على وشك الرحيل، فبعثرت كتابة تحت تأثير كورونا هي والرجل الذي قتله الوهم، على الرغم من ذلك تراءى لنا بصيص من حب، حتى ولو كان فيه حبيب معزول.

فهرس القصص

مباشر من المعتمدية..... 7

المريض رقم صفر «Index Case»..... 19

أنا والسيد كوفيد-19..... 34

زوجي وكورونا..... 49

خمس دقائق..... 58

قتله الوهم..... 69

حبيب معزول..... 82

غرفة 108..... 91

إلى الأبد..... 101

بشارة أمل..... 109

يوميات طبيب وكمامة..... 114

كتابة تحت تأثير كورونا 7 أيام..... 120

تمت بحمد الله

سعاد شاهين الكاشف

2021

طرق التواصل مع الكاتبة

"كتابات سعاد شاهين الكاشف"

www.facebook.com/profile.php?id=100063692710969

"سعاد شاهين الكاشف"

www.facebook.com/profile.php?id=100043412041973